الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

العدد ١٦٢ — ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ — السنة الرابعة

4 me Année, No. 162 | Lundi - 10 - 8 - 1936

بدل الاشتراك عن سنة
ص
٦٠ في مصر والسودان
٨٠ في الأقطار العربية
١٠٠ في سائر الممالك الأخرى
١٢٠ في العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع البدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

السنة الرابعة « القاهرة في يوم الاثنين ٢٢ جمادى الأولى سنة ١٣٥٥ — ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦ » العــدد ١٦٢

فهرس العـــــدد

ساكنو الثياب...

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

قال صاحب سرّ (م) باشا رحمه الله: وجاءني يوماً اثنان من شيوخ الدين من ذوي هيئاتهم وأصحاب المنزلة فيهم، كلاهما هامَةٌ وقامة، وجُبَّة وعمامة، ودرجةٌ من الامامة؛ ولهما نسيم ينفُحُ عِطْرا حسبتُه من ترويح أجنحة الملائكة، وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء في لهب الشمس تنوء به يَمْنةً ويَسْرةً. فتوجَّهتُ اليهما بنظري، وأقبلتُ عليهما بنفسي، ووضعت حواسي كلها في خدمتهما؛ وقلت هؤلاء هم رجالُ القانون الذي مادتُه الأولى القلب

ما أسخف الحياةَ لولا أنها تدل على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين نراهم في عالم التراب كأن مادتهم من السُّحُب، فيها لغيرهم الظل والماء والنسيم، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلوّ والجمال. يثبتون للضعفاء أن غير الممكن ممكن بالفعل، إذ لا يرى الناسُ في تركيب طباعهم إلا الاخلاصَ وإن كان حرماناً، وإلا المروءة وإن كانت مشقة، وإلا محبة الانسانية وإن كانت ألماً، وإلا الجِد وإن كان عناء، وإلا القناعة وإن كانت فقراً.

هؤلاء قوم يؤلِّفون بيد القدرة ، فهم كالكتب قد انطوت على حقائقها وخُتمت كما وضعتْ لا تستطيع أن تخرج للناس من حقيقةٍ نصفَ حقيقة ولا شبهَ حقيقة ولا تزويراً على حقيقة

وما أعجبَ أمرَ هذه الحياة الانسانية القائمة على النواميس الاقتصادية ! فالسماءُ نفسها تحتاج فيها إلى سمامرة لعرض الجنة على الناس بالثمن الذى يملكه كل انسان وهو العملُ الطيب

قال : ونظرت إلى الشيخين على اعتبار أنهما من بقية النبوَّة العاملة فيها شريعةُ نفسها ، تلك الشريعة التى لا تتغير ولا تتبدل كيلا يتغير الناس ولا يتبدلوا . ثم سألتهما عن حاجتهما فاذا أحدهما قد عمل أبياتاً من الشعر جاء يمدح بها الباشا ليزدلفَ اليه ؛ فقلت فى نفسى : ما أشبهَ حَجلَ الجبال (١) بألوان صخرها ! هذا عالمُ دنيا يمدها من الشرق الرغيفُ ، ومن الغرب الدينار ، ومن الشمال الجاه ، ومن الجنوب الشيطان

ثم نشر ورقةً فى يده وأخذ يسرد على القصيدة ، وهى على رَوِىّ الهاء تنتهى أبياتها ها . ها . ها . فكان يقرؤها شعرا أو كما يسميه هو شعرا ، وكنت أسمعها أنا قهقهة من الشيطان الذى ركب أكتافَ هذا العالم الدينى ها . ها . ها . ها ....

***

قال صاحب السر : وأدخلتهما على الباشا فوقف المدَّاح يمدح بقصيدته ، وأخذت لحيته الوافرة تهتز فى انشاده كأنها منفضة ينفض بها المَلَل عن عواطف الباشا . وكان للآخر صمتٌ عاملٌ فى نفسه كصمت الطبيعة حين تنفطر البذرةُ فى داخلها ، إذ كانت الحاجةُ حاجتَه هو ، وإنما جاء بصاحبه رافداً وظهيراً يحمل الشمس والقمر والليث والغيث لتتقلب الأشياء حول الممدوح فيأخذه السحر ، فيكون جواب الشمس على هذه اللغة أن تضىء يوم الشيخ ، وجواب القمر أن يملأ ظلامه ، وجواب الليث أن يفترس عدوَّه ، وجواب الغيث أن يهطل على أرضه

والباشا لا يدع ظرفه ودعابته ، وكان قد لمح فى أشداق العالم المتشاعر أسناناً صناعية ، فلما فرغ من نظمه الركيك قال له : يا أستاذ أحسبنى لا أكون إلا كاذباً إذا قلت لك لا فُضَّ فوك ...

ثم ذكر الآخر حاجته وهى رجاؤه أن يكون عمدة القرية من ذوى قرابته لا من ذوى عداوته . فقال له الباشا : ولقرابتكم أيضاً أبو جهل .... ؟

***

ولما انصرفا قال لى الباشا : لأمرٍ ما جعل هؤلاء القوم لأنفسهم زياً خاصاً يتميزون به فى الناس ، كأن الدين بابٌ من التحرف والتصرف ، بعض آلته فى ثيابه ؛ فهؤلاء يسكنون الجبب والقفاطين وكأنها دواوينُهم لا ثيابُهم ...

قد أفهم لهذا معنى صحيحاً إذا كان كلُّ رجل منهم محصوراً فى واجبات عمله كالجندى فى معانى سلاحه ، فيكون التعظيم والتوقير لثوب العالم الدينى كأداء التحية للثوب العسكرى ، معناه أن فى هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيع الروح وبذل النفس وترك الدنيا فى سبيل المجتمع ؛ هذا ثوبَ الموت يُفرَض على الحياة أن تعظّمه وتجله ، وثوب الدفاع تجب له الطاعة والانقياد ، وثوب القوة ليس له إلا المهابة والاعزاز فى الوطن

ولكن ما ذا تصنع الجبة اليوم ؟ تُطعم صاحبها ...

أثر الجيش معروف فى دفاع الأمم العدوة عن البلاد ، فأين أثر جيش العلماء فى دفاع المعانى العدوَّة عن أهل البلاد وقد احتلت هذه المعانى وضربت وتملكت وتركت هذا العالم الدينى فى ثوبه كالجندى المنهزم يحمل من هزيمته فضيحة ومن ثوبه فضيحة أخرى ؟

أنت يا بنى قد رأيت الشيخ محمد عبده وعرفته ؛ فرحم الله هذا الرجل ما كان أعجبَ شأنَه ! لكأنه والله سحابة مطوية على صاعقة . ولو قلتُ إنه قد كان بين قلبه ورأسه طريقٌ لبعض الملائكة لأشبه أن يكون هذا قولاً

كان يزورنى أحياناً فأرانى مرغماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلبى . وكان له وجه يأمر أمراً إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك الى حقيقة سامية (١)

رجل نبتَ على أعراقٍ فيها إبداعُ المبدع العظيم الذى هيأه لرسالته ، فعواطفه كالعطر فى شجرة العطر الشَّذِيَّة ، وشمائله كجمال السماء فى زرقة السماء الصافية ، وعظمته كروعة البحر فى منظر البحر الصاخب . وكثيراً ما كان يتعجب من هذا أستاذه

(١) هذا مثل عربى ، والحجل الطائر المعروف يكون فى الجبل من لون صخره للعلة المقررة فى التاريخ الطبيعى

(١) وصفنا الشيخ رحمه الله فى كتابنا (السحاب الأحمر) واستلهمنا روحه فصلاً طويلاً تجده هناك

السيد جمال الدين الأفغانى فيسأله مندهشاً : بالله قل لى : ابن أى ملك أنت ؟

لم يكن ابن ملك ولا ابن أمير ، ولكنه ابن القوات الروحية العاملة فى هذا الكون ؛ فهى أعدته ، وهى ألهمته ، وهى أنطقته ، وهى أخرجته فى قومه إعلاناً غير كتمان ، ومُصارحةً غير مخادعة ، وهى جعلت فيه أسدية الأسد ، وهى ألقت فى كلامه تلك الشهوة الروحية التى تذاق وتُحَسّ كالحلاوة فى الحلوى

هذا هو العالم الدينى ؛ لا بد أن يكون ابن القوات الروحية لا ابن الكتب وحدها ، ولا بد أن يخرج بعمله الى الدنيا لا أن يدخل الدنيا تحت سقف الجامع

وأنا فما ينقضى عجبى من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل . يبحثون فى سنن النبى صلى الله عليه وسلم كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويمشى ويتحدث ، كأنهم من الدنيا فى قانون المائدة وآداب الولائم ورسوم المجتمعات . أما تلك الحقيقة الكبرى وهى كيف كان النبى صلى الله عليه وسلم يقاتل ويحارب لهداية الخلق ، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها ، وكيف كان بطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعالاً فى هذه الانسانية للنواميس الجائرة ، وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شِرَّةَ النواميس الاقتصادية التى تقضى بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق فتخرج من الغنىّ متعفّفاً ومن الفقير لصاً ، وكيف استطاع صلى الله عليه وسلم بفقره السامى أن يحول معنى الغنى فى نفوس أصحابه فيجعله ما استغنى عنه الانسان من شهوات الدنيا لا ما نال منها ؛ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة فى تنظيم الحياة فقد أهملوه ، إذ هو لا يوجد فى الكتب وشروحها وحواشيها ولكن فى الحياة وأثقالها وأكدارها . وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة فى مواضع لم يضعهم فيها الدين ولكن وضعتهم فيها الوظيفة

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة : سئل بعض العرب : بم ساد فلان فيكم ؟ قالوا : احتجنا الى علمه واستغنى عن دنيانا

(سيدى بشر باسكندرية)

من ذكريات عابر سبيل

للأستاذ ابرهيم عبد القادر المازنى

كان أحد الأخوان يصحح قول الشاعر : « وسافر ففى الأسفار خمس فوائد » فيقول — بعبارة لا أستطيع أن أرويها بحروفها — إن الفوائد ثلاث فقط : البعد عن المرأة ، والنوم كيفما اتفق ، وتكليم الناس بلا معرفة . فأما البعد عن المرأة — أى الزوجة — فانى لم أعد أدرى أهو مزية وخير أم ضرورة وعيب وشر ؟ . ولكن الذى أدريه أنى حاولته مرة بلا لف أومداورة ، ثم عدلت عن التماسه ووطنت النفس على اليأس منه ، ورضتها على السكون إلى القرب والمودة . وتجاربى فى هذا الباب تخولنى أن أنصح لمن يريد أن يسافر وحده أن يجازف ويلح على زوجته أن تكون معه ، فاذا أبت كان هذا هو المراد من رب العباد ، وإلا فلن يصيبه إلا ما كان مكتوباً عليه . على أنه يجب أن يكون مفهوماً أن المعول فى هذا الامر على أسلوب الحوار وطريقة الكلام . والزواج — كما هو معروف — من مزاياه أنه يكسب الانسان مرونة فى التعبير ، وقدرة على الاحتياط ، وبراعة فى التحرز ، وسعة فى الحيلة . وإنى لأذكر أنى كنت فى سوريا مع أسرتى منذ نحو سنتين ؛ فذهبنا مرة الى بيروت لنشترى أشياء نهديها إلى أهلنا ومعارفنا عند عودتنا ؛ فرأت زوجتى معطفاً من الفرو ثميناً جداً فأعجبها واشتهت أن يكون لها ، ولكنى نظرت إلى ثمنه فدار رأسى ، وأيقنت أنا إذا اشتريناه سنضطر إلى الاستجداء والتسول ، فأصابتنى فجأة نوبة عصبية حادة لم ترها زوجتى قط من قبل ، ففزعت ودعت أصحاب المحل أن يدلوها على طبيب بارع فى الأمراض العصبية ، فقد خيل إليها أن هذا الذى أصابنى لا بد أن يكون ضرباً من الصرع أو التشنج أو لا أدرى ماذا غير هذا ، فحملونى إلى طبيب فرنسى قالوا لها إنه هو الاخصائى الوحيد هنا ، وإنه من آيات الله ومعجزاته فى طب الأمراض العصبية ، فأدخلونى عليه فاتضح له من استجوابى ومما عرفه من تاريخ آبائى وأجدادى من قبلى أن أهلى — فى حداثتى — خوفونى مرة بدب صناعى له فرو كثيف ، وكانت صدمة الفزع الذى انتابنى فى صغرى شديدة جداً ، فأنا من ذلك الحين أضطرب جداً جداً إذا وقعت عينى على الفرو ... فسألته زوجتى التى لم تكن

تعرف هذا الجانب من تاريخ حياتي الحافل بالفاجآت — سألته عن الملاج فقال : « أوه .. لا شيء .. لا داعي للقلق .. ولكن يجب ألا ترى الفرو أبداً . . » ، والحق أقول إنه كان طبيباً بارعاً جداً ، فان مرضى العصبي لم يعاودني بعدها أبداً . . والفضل بعد الطبيب هو بلا شك لزوجتي التي حرصت أعظم الحرص على ألا أرى الفرو . .

وأما النوم كيفما اتفق فهذا أشهد أنه صحيح .. وأذكر بسرور أن قطاراً سافرت فيه مرة كان غاصاً بالركاب . وكانت المسافة طويلة والشقة بعيدة تستنفد الليل كله ولا بد من النوم . ولو كانت الجلسة مريحة لنمت وأنا قاعد ، ولكني كنت كالباحة في قفة عجوة ، فحرت ماذا أصنع . ثم فتقت الضرورة لي حيلة فنحيت الحقائب عن الشبكة الممدودة لها فوق رؤوسنا ورقدت مكانها ، ونمت أهنأ نوم إلى الصباح ، ولو كنت ضخم الجسم لما تيسر لي ذلك فالحمد لله على الضآلة ..

وأما تكليم الناس على غير معرفة فهذا هو قانون السفر ، ولست تحتاج أن يعرفك أحد بأحد في رحلة ، وما عليك إلا أن تبدأ من تشاء بالكلام كأنما كنت تعرفه من عهد آدم ، ولكن هذا لا يخلو من خطر ؛ فقد تقع على ثقيل أو ثرثار فينغص عليك وقتك ويحرمك كل متعة يمكن أن تفوز بها وأقلها متعة الراحة وخلو البال من المنغصات ؛ ولكثرة ما أصابني من ذلك صرت أكره السفر بالقطار وأوثر السفر بالسيارة ؛ فاذا اضطررت إلى القطار عمدت إلى الحيلة وهي أن أضع حقيبتي في أي مكان حتى يتحرك القطار ، ثم أتركها وأذهب أبحث عن مكان آخر أتوسم في أهله الطرف والايناس ، وهذا يتطلب فراسة صادقة ، والفراسة استعداد ولكنها تكتسب الى حد ما بالتجربة .

ومن الفوائد المجربة في الأسفار أن يستصحب المرء معه كتاباً في فن الطبخ ، ولست أعني أنه قد يحتاج أن يصنع طعامه بيده وإن كان هذا محتملاً ، ولكني أقص ما وقع لي في هذا الباب — أو بعضه على الأصح — فقد كنت مرة في فلسطين وكنت ضيفاً على صديق لي ، فأصابني برد شديد من كثرة التنقل بين البلاد فوق الجبال بالسيارة في الليل وعاودني مغص الكليتين ، فلم يبق بد من الرقاد والحمية وانتظار مشورة الطبيب وإن كنت عارفاً بدائي ودوائه ، ومضى يوم ثان وثالث وطلع الرابع وأنا لا آكل إلا الموصوف من الأطعمة الخفيفة المأمونة ، وهذه لا طعم لها ولا لذة لآكلها ، وكل طعام يفرض على المريض يكون بغيضاً اليه ، فاشتهت نفسي أشياء قالوا لي إنه لاسبيل اليها لأن الطبيب منع أن تقدم إلي ، فاعترضت على هذا وقلت لهم إن الألم قد زال وإن الصحة قد عادت ولله الحمد ، وإني أستطيع الآن أن أفعل ما أشاء وآكل ما أحب ، فقالوا «حتى يراك الطبيب» فقلت إن هذا طعن في ذمتي لا أقبله ولا سيما في أمر يعنيني وحدي ، وأنا على كل حال أدرى من الطبيب بنفسي بل أدرى من أطباء الدنيا جميعاً . وهل كان الطبيب قد أحس بالألم حين جاءني المغص . . هل عرف أني ممغوص إلا مني . . اذن انتهينا . . أنا أنبأته أني مريض ولولا ذلك لما عرف . وأنا أيضاً أنبئه أني شفيت وأنه صار من حقي أن أتمتع بمزايا الصحة . . واذا كان الطبيب قد صدقني في واحدة فيجب حتماً أن تصدقوني في الثانية ، فروحوا هاتوا كذا وكذا من الآكال ، وكيت وكيت من الأشربات . .

فضحكوا وأبوا أن يجيبوني الى ما طلبت قبل أن يأذن لي الطبيب ، فلم يسعني الا أن أذعن للحرمان — فاني في بلد غير بلدي — ولكني طلبت أن يجيئوني بكتاب في فن الطبخ فاستغربوا وسألوني عما أنوي أن أصنع به فلم أعبأ بهم ، فجاؤوني به فقلت لهم : « ألا تستطيعون أن تذهبوا عني الى حيث تشاؤون فحسبي هذا الكتاب وكفى به أنيساً في وحدتي ومسلياً لي في غربتي »

وفتحته في موضع الفهرس وانتقيت الألوان التي أشتهيها وانطلقت أقرأ بنهم . وصدقوني حين أقول إن ريقي كان يجري وإني كنت أنعم بأقوى من لذة الشره المبطان وأنا أقرأ فيه

« كفتة الدجاج — تسيح الزبدة ويضاف الدقيق ثم اللبن بخفة مع استمرار التقليب حتى يصير المزيج في قوام القشدة ، ثم يضاف الملح والبقدونس والفلفل ، ثم تغلى مدة ثلاث دقائق ، ويضاف لحم الدجاج ويخلط جيداً ، ثم يصب هذا فوق طبق مسطح حتى يبرد ويؤخذ من المخلوط بملعقة كبيرة ويوضع في دقيق ويعمل على هيئة كور أو أقراص أو أشكال بيضاوية وتوضع في مكان بارد حتى تتجمد تماماً ، ثم تتبل في فتات خبز ، وتغطس في بيض مخفوق مخلوط باللبن ، ثم في فتات الخبز ثانياً وتقلى في سمن ساخن جداً حتى تحمر ثم تنشف على فرخ ورق غير مصقول .. تنبيه — هذه الكمية تصلح أن يعمل منها أربع عشرة قطعة « ولكني نسيت أن أذكر الكميات والمقادير . . لا بأس . فليس هذا كلاماً عن الطبخ . . ولا عجب أن أذوق بالوهم والخيال مثل

لذات الحقيقة فان هذه حياتنا معشر الأدباء .. وما أكثر ما نترك الحقائق ونروح نجرى وراء الظلال ! ثم نحاول أن نعزى أنفسنا بأن الحقائق المشتهاة كثيراً ما أثبتت التجربة أنها دون ما كان متوقعا ، وأن الخيال أفسح رحاباً وأوسع آفاقاً ؛ فهو أقدر على امتاعنا . وأن الحقيقة نفسها إنما تكون ممتعة وجميلة بفضل الخيال ، ولولاه لما كان لها طعم ولا فيها متعة . فعمل الخيال لا بد منه للامتاع على كل حال سواء أكنت آكلا بالفعل أم متوهماً أنك تأكل ؛ والفضل والمزية للخيال لا للمادة فانها بمجردها لا شيء ، وإنما تكون شيئاً بما يفيضه عليها الخيال من السحر والفتنة وما يضفيه عليها ويفيضه إليها ويزينها به .

وعلى ذكر فلسطين أقول إنى أحب السفر إليها لأنها لا تكلفنى إلا أجرة القطار . أما الأكل والنوم والنزهة فعلى الله والاخوان بارك الله فيهم . وقد حدث فى العام الماضى أنى تعبت من العمل المتوالى فأشاروا على بالراحة . فقلت اذهب إلى فلسطين . وكان الوقت شتاء والبرد فى جبال فلسطين يكون قارساً . فقال لى صديق اذهب الى الأقصر فقلت : فلسطين أفضل ، فاستغرب وبدأ يجادل ، فضاق صدرى وقلت له : ياأخى إن الاقصر تحتاج إلى مال كثير ، أما فلسطين فيكفينى أن تكون معى أجرة القطار

ومن الغرائب التى لا أظن أن كثيرين وقع لهم مثلها أنى كنت مرة فى جزيرة مع إخوان لى ، فقلنا : نصيد سمكا نشويه ونأكل منه فى يومنا هذا ، فاخترنا شرماً يضرب الماء فيه ويمعن فى البر لأنا قدرنا أن يكثر فيه السمك ، وجئنا بديدان اتخذناها طعاماً وجلسنا ننتظر أن يخدع السمك . فمضت ساعة وأخرى ونحن لا نظفر بشيء ، فنفد صبر أحدنا فتركنا وغاب شيئا ثم عاد بفونوغراف أداره وهو يقول مازحا : « لعل السمك يحب الموسيقى .. من يدرى .. أليس له حاسة فنية ؟ » فسرنا أنا وجدنا شيئا نتسلى به فى هذه الجلسة المملة ، وإذا بالسنارة التى كانت معى تضطرب وتنجذب إلى الماء ، فشددتها فخرجت سمكة حسنة ، فصحت بصاحبى « أعد ! أعد . . أعنى للسمك فما جاء إلا على الموسيقى » وكنت أنا أيضاً أمزح ، ولكننا ما لبثنا أن وجدنا هذا حقيقة . فكان السمك يكثر ويشتد إقباله على الناحية التى نكون فيها إذا أدرنا الفونوغراف ، ويقل ويذهب عنا إذا سكت . ولو كانت معنا مجموعة وافية من الاسطوانات لا استطعت أن أجرب أى الأدوار أحب إلى أى أنواع السمك ، ولعرفت أى الأسماك تحب التانجو وأيها يؤثر الفوكس تروت وهكذا . وقد اتفق منذ بضعة شهور وأنا فى العراق أن كنا مدعوين الى الغداء فى بيت على نهر دجلة — والعراقيون يسمون كل مسكن على النهر قصراً أوسراى ولو كان كوخاً — وكان بيت صديقنا هذا ضخما فخما وفيه جهاز للراديو ، وكانت الساعة الأولى مساء — وهى بحساب الوقت فى مصر الساعة الثانية عشرة — فخطر لى أن أجرب تأثير الموسيقى فى السمك ، فرجوت من صديقنا أن يفتح الراديو وأن يسمح لنا بالانحدار الى الحديقة ، وهى متصلة بالنهر ، واتفق أنه كان مغرماً بالصيد ، ولكننا لم نسمع من مصر الا شريطاً مسجلا لأحد المغنين ، ويظهر أن السمك لا يحب المعاد أو لعله لم يعجبه الغناء وان كان يطربنا نحن الآدميين . فقلت أعود فى المساء وأرى . غير أنى لم أستطع أن أعود إليه قبل الساعة التاسعة مساء — أى الثامنة بحساب الوقت فى مصر ، واتفق أن كان الذى يذاع حديثاً فنفرت الأسماك جميعها نفوراً ظاهراً . وفى اعتقادى أن محطة الاذاعة تستطيع أن تساعد على ترقية المصايد المصرية — فتخدم السمك والناس — إذا هى عنيت بأن تدرس طبائع الأسماك وأمزجتها وما يوافقها من ضروب الموسيقى ، وفى وسعها بالاذاعة المتخيرة أن تنظم صيد السمك ، وأن تجعل لكل نوع منه وقتاً معيناً . فاذا كان المراد مثلاً صيد ما يسمى البورى وما يماثله أذاعت للصيادين بعض الأغانى الشجية التى تفتر النفس . وإذا كان المطلوب صيد ثعابين الماء أو حياته أسمعتها أغنية « هاتشى بشى » وهكذا فيكثر المحصول بلا عناء وينتظم الأمر كله . ويعرف الناس ما ذا يستطيعون أن يأكلوا من السمك فى كل يوم بمجرد الاطلاع على برنامج الاذاعة ومن غير خوف من أن يغشهم التاجر ويدخل عليهم صنفا باسم صنف آخر

والحجاز وإنجلترا هما — فيما أعرف — البلدان الوحيدان اللذان تستطيع فيهما أن تترك حقائبك أو أشياءك فى الطريق فلا تمسها يد غير يدك ولا يسطو عليها سارق . فاما فى الحجاز فقد سقطت منى عصاً فى الطريق بين جدة ومكة فتعطل السير من الجانبين وانقطع المرور حتى اهتدى الشرطة إلى أنى صاحبها فخاطبونى بالتليفون وأنا فى الشمسية — قرب مكة — فرجوت منهم أن يردوا العصا اللعينة إلى جدة مخافة أن ترتكب اثماً آخر فيأخذونى بذنبها . وأما فى انجلترا فقد تركت حقائبى ساعة وصلت إلى لندن على الرصيف أمام البيت الذى اختاره صديق لى

لأنزل فيه وذهبت معه — أى مع الصديق — إلى بيته حيث اغتسلت وحلقت ذقنى وشربت القهوة واسترحت ثم عدت الى الحقائب بعد ساعتين فوجدتها فى مكانها كما كانت . وأغرب من ذلك أنى راهنت صديقى هذا أن أقضى يوماً فى لندن لا أتكلم فيه إلا اللغة العربيـة نخاف أن نتورط فيما لا يحمد واقترح أن نقتصر على السعى للوصول إلى وستمنستر أبى « من غير أن ننطق كلمة بغير لغتنا . فوافقت وتوكلنا على الله وخرجنا من البيت — هو وزوجته وأنا — وكنا نعرف الطريق ولكننا تجاهلناه ، فراقنى منظر رجل واقف بجنب حانة ينتظر على الأرجح وقت السماح ببيع الخمر — فان لذلك وقته المعين حوالى الظهر وفى المساء — فدنوت منه وحييته التحية المصرية — أى برفع يدى ثم مدها الى يده لمصافحته ، وسألته — بالعربية طبعاً — عن وستمنستر ، وتعمدت أن أحرفها تحريفاً شديداً فنطقتها « وستمنصته » ، وأقول الحق ان الرجل فزع واعتدل بعد الميل ونسى الخمر التى يحلم بها وينتظر أن يسعد باحتسائها ؛ فأعدت السؤال برفق فلم يفهم طبعاً على الرغم من صدق رغبته فى ذلك ، فلما يئس قال تعال معى ، وقادنى الى الشرطى وهو شىء ضخم جداً وأنا شىء ضئيل أو كما يقول ابن الرومى :

أنا من خف واستدق فلا يثـ ـقل أرضاً ولا يسد فضاء

وقال له إن هذا الغريب يبدو لى أنه يسأل عن شىء لا أستطيع أن أتبينه ، فمال على العملاق الانجليزى وقال يستحثنى : نعم ؟ فسألته عن «وستمنصته» فجعل يهز رأسه ويستعيدنى ، وأنا أهز له رأسى أيضاً كأنى غير فاهم ، وألح فى السؤال عن « وستمنصته » فأحس أن فى الكلمة شيئاً يمكن أن يهديه إلى مرادى وقال « قل هـذا مرة أخرى » ولكنى تغابيت وجعلت أتلفت ، ثم قلقت وخفت ، فقد رأيت صديقى وزوجته قد تركانى وذهبا فوقفا على الرصيف . وليت هذا كل ما حدث ... اذن لما كان فيه بأس ولكنهما كانا يضحكان حتى لخيل الى أنهما سيقعان على الأرض . وكان ضحكهما بصوت عال نخفت أن يفطن الى أن الأمر مزاح فيستثقله أو يعده سخرية منه فتسوء العاقبة ، نخففت التحريف فلم يلبث أن فطن الى مرادى فاستوقفنى حتى مرت سيارة أمنيبوس معينة فأمرنى أن أصعد وتبعنى صديقى وأمر الكمسارى أن يأخذ منا الأجر الى وستمنستر وأن يحرص على أن ينزلنا هناك ، فأخرجت نقوداً ومددت بها يدى الى الكمسارى ليأخذ منها ما يشاء لحاجة منى فى دعوى الجهل باللغة الانجليزية . وهكذا كسبت الرهان

وفى غير بوليس لندن لا تجد مثل هـذا الصبر والرغبة المخلصة فى المعاونة . وأذكر مثالاً آخر فأقول إن صديقاً لى أعارنى سيارته لأذهب بها من لندن الى اسكتلندا وأتمتع فى طريق بأجمل ريف فى العالم ، وهو ريف انجلترا ، وكانت السيارة كبيرة ضخمة ويكفى أنها من طراز « دعلر » ، فكنت إذا جاء الليل قبل أن أصل إلى بلد ما وخفت أن أضل ، أميل عن الطريق إلى الأرض المعشاب وأتعشى بما أعددت من الطعام ، ثم أنام فى السيارة الى الصباح الباكر ، فاتفق يوماً أن فرغ البنزين وأنا سائر قبل أن أنتبه ، فوقفت مضطراً حيث كنت . ولما كانت السيارة كبيرة وثقيلة فقد عجزت عن تحويلها عن الموضع الذى تشغله من الطريق ، فجلست على سلمها وشرعت أدخن حتى يوفقنى الله إلى شىء ، فمر بى شرطى كان قد فرغ من العمل على ما أخبرنى ، فهو ماض إلى بيته ، فسألنى : هل بالسيارة خلل ؟ قلت : لا ، ولكنها أتت على كل ما فى خزانها من الوقود . فقال : انتظر ، ومضى عنى إلى حقل قريب ، وهناك استعار دراجة — بسكليت — ركبها وعاد بها ، وما لبث أن رجع حاملاً معه مقدارا كافياً من البنزين وقمعاً لافراغه فى جوف السيارة ، فشكرته وقدمت له كأساً من الوسكى الذى معى فى السيارة ، وبعد قليل حملت القمع والصفيحة معى وذهبت بهما إلى محل البنزين ، وكان على مسافة ثلاثة أميال ، فرددت الأشياء ودفعت الثمن . ومن الانصاف أن أقول إنك لا تعدم شرطياً غير انجليزى يفعل هذا ، ولكن هذه الروح فى الانجليزى طباع

وأعود إلى فلسطين فأقول إن فى عكة مسجداً كبيراً هو الآن مسجد ومدرسة فى آن معاً ، وقد بناه — على ما أظن — أحمد الجزار باشا الوالى التركى فى ذلك الزمان ، وهو رجل مشهور فلا أحتاج أن أحدثكم عنه ، ولكنى أقول إنى وجدت مكتوباً على باب المسجد من الداخل هذا البيت العجيب فى مدح الجزار باشا :

« ذاك الوزير الشهم أحمد من غدا جزار أعناق العباد كما يجب »

وأظن هذا بيتاً يستحق التدوين ....

وفى بغداد دعانا الشيخ ابن معمر — القائم بأعمال المفوضية العربيـة فى العراق إلى أكلة على الطريقة البدوية ، فاستحسنا ذلك جداً ، وآثرناها على وليمة أخرى ؛ فلما ذهبنا ألفينا السماط ممدوداً ... وأصف ما رأيت فأقول إن السجادة غطيت بملاءة بيضاء وضع عليها جفنـة ضخمة فوقها صينية عظيمة لا أدرى من أين جاءوا بها ، وقد قالوا لى إن عندهم ما هو أكبر

منها بكثير ، وفوق الصينية طشت هائل ملئ أرزا مخلوطاً بالزبيب واللوز والفستق ، وعلى الأرز خروف عظيم مشوى — هذا فى الوسط ، وحول الجفنة وعلى مستدارها أطباق عديدة لا يأخذها الحصر ، فيها أنواع شتى من الطعام ... كالدجاج والخضر والعصيدة والولائق المختلفة ، وهى من دقيق وسمن ولبن ، وقد عرفوا أننا لن نستطيع مجاراتهم ، فأعدوا لنا أطباقا وملاعق وسكاكين وأشواكا ، فجعلنا نحن نأكل على طريقتنا ، أى أن نأخذ ما نشتهى فى أطباقنا . أما هم فأكلوا على الطريقة البدوية الصرف ، وهى أن يتناول الواحد قبضة من الأرز ويطوى عليها أصابعه ويضغطها حتى تصير كالكفتة ، وبعد أن يفتلها على هذا النحو يقذف بها فى فمه . وهذا يبدو هيناً سهلا ، ولكن المصيبة أن الطعام يكون كالنار فيحرق الكف ، فكيف بالفم واللسان ؟ أما اللحم فيهبر منه ما تستطيع أصابعه أن تقطعه أو تمزقه ويرمى به فى فمه ، وما يرمى فى الحقيقة إلا جمراً مضطرماً . وعلى ذكر الجمر أقول إن للعرب — أو على الأصح للبدو — طريقة عجيبة فى علاج الجروح ، وقد جربتها فأنا أتكلم عن خبرة ويقين ، ذلك أن راحتى أصابتها النار ، فجعلت أوحوح وأنفخ فيها ، ولا أدرى ما ذا أصنع لتسكين الألم على الأقل ، فصاح أحد النجديين الذين كانوا حاضرين هناك : — هذا كان فى الحجاز : « ملح ... ملح ... » فجاءوه بقليل من الملح الخشن فمد به يده الى وقال « خذ قبضة » « فتناولت منه بيدى السليمة وأنا أضحك فى سرى وأقول لعله يظن أن الحروق يفيد فيها السحر » فصاح بى « بيدك المحروقة » ، ففهمت وأخذت قبضة بيدى المحروقة فقال « اطو عليها أصابعك » ففعلت فقال « ابق هكذا » فظللت قابضاً على الملح الخشن دقائق ثم نظر فى وجهى وقال : « استرحت الآن .. زال الألم .. » ففتحت كفى وأنا أبتسم ولا أكاد أصدق ، فما كنت أشعر بأى ألم ولا رأيت أى أثر للحرق ! فما قول الأطباء فى هذا ؟ وليكن رأيهم ما يكون فانى أنا لا أنوى أن أداوى الحروق التى تصيبنى — وعسى ألا يصيبنى شىء — إلا بالملح ...

وفى لبنان أنقذتنى فتاة لا أعرفها من هلاك محقق ، وهذه الفتاة من أعاجيب الخلق ، فان لعينيها نظرة تنيم الحية — كما عرفت بالتجربة المرعبة — وأنا قوى النظرة حادها وفى وسعى أن أحدق فى قرص الشمس ، ولكنى لم أستطع أن أحدق فى وجه هذه الفتاة العجيبة . وكنت كلما وقعت عينى على عينها لا أزال أطرف ثم لا أجد بداً من تحويل عينى الى ناحية أخرى . وكنا قد لقيناها فى الصباح ونحن نصعد فى جبل فى رأسه ينبوع أردت أن أرى الموضع الذى يتفجر منه ماؤه . وكانت تحمل جرة فيها من ماء هذه العين ، وكنا نخاف أن نضل ، فسألناها عن الطريق واستملحناها فاستسقيناها وأردت أن أنقدها بضعة قروش فأبت ، وأنبأتها أنى أريد أن أرى مفجر العين فنهتنى عن ذلك ، فسألتها عن السبب فقالت وهى تهز كتفيها : « هيك » ولم تزد ، ولما ودعناها عادت تحذرنى ، فضحكت وشكرتها وأبيت إلا أن أصعد الى حيث ينبثق الماء ، وصعدت وحدى فقد رأى إخوانى وعورة الطريق فانصرفوا عن مرافقتى ، فوجدت كهفاً على بابه عشب ونبات طويل ورأيت الماء يخرج من الكهف ، فقلت أدخل لأرى فنحيت النبات وإذا بى أرى عينين لامعتين فظيعتين ثابتتين تحدقان فى عينى ، وكانت نظرتهما من القوة بحيث لم أستطع أن أحول وجهى ، وزاد فظاعة النظرة وعمق تأثيرها أن العين لا تطرف والجفون لا تتحرك وأن البريق شديد جداً فى ظلام الغار . وكانت العينان ترتفعان عن الأرض شيئاً فشيئاً وتدنوان منى على مهل وأنا أنظر إليهما ويداى الى جانبى وقد جمدت فى مكانى وشعرت بالخدر فى أعضائى . وكنت قد أدركت أن هذه حية وأنها من النوع الوثاب الذى تتحرك عيناه ولا تطرف جفونه ، ومن هنا عمق تأثير نظرتها ، ولم يخالجنى شك فى أنى مقضى على بالهلاك . وكيف أنجو وأنا مسمر فى مكانى لا أستطيع حراكا ؟ ولو وسعنى أن أتحرك لوثبت الحية على وأنشبت فى أنيابها قبل أن أدور على عقبى . وكانت نفسى تنازعنى أن أصرخ مستنجداً ولكن شفتى كانتا مطبقتين لا تنفرجان . وإذا بالعينين المرعبتين تتراجعان فى الظلام وتهبطان الى الأرض بعد أن كانتا ترتفعان عنها وتزحفان الى ، وأحسست أن نظرتهما تفتر وأن تأثيرها فى نفسى صار أقل وأضأل ، وشعرت بأنى صرت أملك أن أحرك أعضائى بعد طول الجمود ؟ فتلفت فاذا الفتاة التى لقيناها فى الصباح تحدق فى عينى الحية بأقوى من نظرة الحية . ويكفى أنها ردتها بعينها . واختفت الحية فتشهدت وملت على الفتاة لأشكرها بقدر ما كان يسعنى أن أفعل فى مثل هذه الحالة ، فلامتنى على مخالفتها وذكرتنى أنها حذرتنى وقالت إنها أشفقت على من المصير الذى كان لا مفر منه فأدركتنى قبل أن أقضى نحبى فسكت ولم أقل شيئاً .. وماذا أقول ؟ .

ابراهيم عبد القادر المازنى

من (الكتاب الذهبي) قبل أن يطبع

لغة الأحكام والمرافعات

للأستاذ زكي عريبي

دستور (البحث)

أي شيء يراد بهذا العنوان « لغة الأحكام والمرافعات » ؟

الموضوع مطلوب للكتاب الذهبي بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على إنشاء المحاكم الأهلية . فهل يجب أن يقتصر على المرافعات القومية كيف كانت لغتها قديماً وكيف تطورت وإلام انتهت وكيف يجب أن تكون ؟

أهذا هو محور البحث ؟ أم إن له مدى أبعد ودائرة أوسع ؟

الحق إن نواحي الموضوع حسبما يوحي عنوانه أكثر من أن تعد أو تحصر . لقد كان للناس محاكم منذ أقدم العصور وفي جميع البلاد المتمدنة ، ولكل عصر من عصور التاريخ ، ولكل بلد من بلاد المعمورة ، مميزاته في تسيير العدالة وما يرتبط بها ، ومنه ما نحن بصدده . ثم إنك إذا تحدثت عن لغة المرافعات استحال عليك أن تقصر بحثك على نحو الكلام وصرفه وباقي صفاته اللغوية ؛ بل أنت تريد إلى جانب هذا أن تنظر في الأحكام والمرافعات من حيث الأسلوب ، واختيار اللفظ ، وترتيب الكلام ، ومراعاة المناسبة ، وملاحظة الصوت والاشارة . ثم إن الموضوع ذو شقين بطبعه ، إذ أن لغتك وأنت جالس للقضاء غيرها وأنت قائم للدفاع . ثم إن الحال في مصر تختلف عنها في أكثر بلاد الدنيا ، فنحن هنا نطبق أحكام قانون نبت في بلاد أجنبية ولم تحتضنه لغتنا إلا منذ قريب . فأكثر المشتغلين بتطبيقه قد درسوا مبادئه ثم تعمقوا في أصوله بغير اللغة التي يكتبون بها أحكامهم أو يعدون بها دفاعهم

أي ناحية من هذه النواحي الكثيرة المتعددة يجب أن تعالج في مقال أكبر الظن أن الحيز المخصص له محدود وسط الأبحاث الهامة القيمة التي سوف ينطوي عليها « الكتاب الذهبي » ؟

لقد فكرنا في الأمر ملياً فانتهينا إلى أنه خير لهذا المقال إذا انفرجت حلقة البحث فيه فجاوزت الحدود المصرية البحتة إلى إلمامة بالحال عند غيرنا من المعاصرين ومن سبقهم من النابهين الذين يمكن أن يعدوا بحق واضعي أسس من الكلام القضائي . فاذا فرغنا من ذلك ، ولن نطيل فيه ، عرضنا لتاريخ لغة القضاء عندنا ماضيها القريب وحاضرها وما ينتظر لها على يد حملة لواء نهضتها الحالية

ولا ننتظر من هذا المقال بحثاً لغوياً عميقاً ؛ فليس لنا بذلك طاقة ولا المحل هنا محله . هذا إلى أن نواحي البحث الأخرى أجدى وأنفع . وسوف نعنى بالتفريق بين لغة المرافعات ولغة الأحكام ، فان لكل منهما مميزات تختص بها ونحب التنبيه عليها ، ولو أن كلا منهما تلقى في مصر صعوبات مشتركة يجب على العائلة القضائية بأسرها التضافر على مغالبتها وتذليلها

ولنبدأ بهذا قبل أن تنفرج قاعدتا الزاوية بحكم اضطرارنا إلى الفصل بين شقي هذا البحث

متاعب اللغة العربية

المتاعب التي يلقاها المترافعون وصائغو الأحكام على السواء في مصر جزء من متاعب لغة قديمة كريمة نامت نومة أهل الكهف زمناً ، ثم أوقظت على حين غفلة لتقف على قدميها دفعة واحدة فتتفهم والنعاس ما يزال يغالبها ويعقد أجفانها أحوالاً جديدة ليس لها بها عهد ولا سابق معرفة . أوقظت بشدة ودفعت بعنف لضرورة ملحة لتساير وتلاحق في ميدان لا تحده سوى حدود العقل البشري لغات وثيقة الصلة بنهضة العلوم التي رفعت أوروبا إلى مقامها الممتاز الحالي ، وجعلت منها منارة العلم والفلسفة والأدب والتشريع والاختراع . لغات صقلتها قرون متعاقبة عامرة بجهود متواصلة ربطت طارفها بتليدها وهيأتها أداة مرنة صالحة لما يطلب منها في مختلف ميادين النشاط العقلي

وأنت في مصر كاتباً كنت أو أستاذاً في جامعة ، محامياً أو قاضياً ، مهندساً أو طبيباً ، لا تكاد تذكر أمامك اللغة حتى تتجه بفكرك إلى مختلف الصعوبات التي تعانيها إذا طلب منك أن تكتب أو تحاضر في فرعك الخاص . لقد أخذت كما أخذ أفراد هذا الجيل والذي تقدمه العلم عن أوروبا ؛ أخذته سهلاً ميسوراً بلغة أجنبية لقنتها صغيراً في طرازها الأخير فخصات بها

على أداة دقيقة مطواعة لحاجات العصر قد استوفت دقائقهـا من مسميات وأفعال وتعبيرات لها دلالتها الخاصة المحدودة . درست بهذه الواسطة فى لين وسهولة ، ثم إذا بك وقد انتقلت فجأة بمحصولك العلمى إلى محيط يريد أن يفهم منك مافهمته ويأخذ منك ما أخذته ، وليس سبيل للتفاهم مع هذ المحيط إلا لغة قد يكون معدنها ذهباً ولكنه ذهب ما يزال تبراً مخلوطاً بأتربة تراكمت منذ أجيال . فأنت مضطر إلى تطهيره من كل عنصر زائف ، ثم عليك بعد ذلك صهره فى بوتقة العصر ثم صقله ثم ضربه نقوداً من أعيرة وفئات مختلفة . فاذا ما استقام لك هذا كله لزم أن يجرب الناس عملتك هـذه الجديدة وأن يتداولوها زمناً قبل أن تستقر نظاماً مألوفاً معمولاً به

ليس مركز المتكلم أو الكاتب باللغة العربية إذن سهلاً ميسوراً فى هذا العصر . اللهم إلا أن يقول شعراً يحتذى فيه المتنبى ، أو يكتب نثراً ينسج فيه على منوال عبد الحميد الكاتب أو ابن المقفع . أما أن يعرض بقلمه لشىء من مختلف العلوم والفنون الحديثة فهو أعزل إلا من العزم الذى تيمنه الصعاب ، فقير إلا من عناصر الثروة المخبوءة فى لغة مجيدة تتطلب كثيراً من الجهد فى استكشافها ثم مثابرة وصبراً لاقرار ما يكتشف وإحلاله محله من نظام مقبول

ولكن أيمكن حصر هذه الصعوبات ومعالجتها ؟

ليس فى هذه العجالة متسع للخوض فى موضع قلنا ونكرر إنه خارج اختصاصنا وفوق مقدورنا . ولكن ما نراه فى عالم الحقوق يجيز لنا أن نعتقد أنه ليس فى اللغة العربية أدواء أصيلة تمنعها من أن تأخذ مكانها تحت الشمس كلغة عصرية تضرب بسهم فى مختلف العلوم والفنون . فقد سبق لها أن دعيت الى مثل ما تدعى إليه اليوم وهى بعد أقرب الى البداوة منها الى استقرار الحضارة ، فوثبت الى غايتها العلمية وثبة الجواد الكريم . ودرس العرب حضارة الاغريق وفلسفتهم وطبهم بالعربية وحلوا محل الرومان فى حمل مشكاة الحضارة قروناً يؤلفون فى كل علم وفن بل ويزيدون فى ثروة العالم العلمية بما استنبطوا من معارف جديدة . فهل تعجز العربية ولها هذه السابقة المجيدة وذلك التراث الباهر أن تصل فجرها الجديد المتألق بمسائها الباهر ؟ إن لنا أن نأمل بل لنا أن نطمئن الى غد سعيد أخذاً بالقياس

ولكن لنعد الى ما كنا فيـه ولنتحدث قليلاً عن صعوبات الحاضر فقد يتعين هنا التنويه باثنتين :

تجاوز القصد

كثيراً ما عيرنا — وأخشى أن نكون قد عيرنا بحق — بأننا نجاوز إذا جلسنا للكتابة أو قمنا للكلام الغرض الذى نتوخاه بأحدهما ، وأن اللغة التى نستعملها فى عصر اللاسلكى أو الكهرباء ما تزال تغشاها المحسنات اللفظية وتغمرها المترادفات ويفسدها الحشو ويرهقها استطراد يمكن التخفيف من كثيرمنه . فأغلب الكتاب إذا ذكر الظلم ألحق به الاستبداد ، وإذا تكلم عن الرحمة أردفها بالشفقة والحنان . وليس الذنب فى هذا على اللغة العربية بل على تقاليد سيئة وجهل بمقتضيات العصر . إن لغتنا موسيقية بلا مراء ولكن باعرابها . وهى غنية غاية الغنى بأسمائها وأفعالها ونعوتها . ولكن هـذه الثروة لم تجمع للزينة فحسب ، ولم تدخر فى بطون المعاجم لكى يتزن بها الروى وتستقيم القافية ويحسن السجع ، وإنما لتكون منها وسائل لأداء معان مختلفة وان تقاربت . وأول واجب على الكاتب فى هذا العصر أن يستعمل كل لفظ فيما أعد له من الأصل ؛ فيعرف مثلاً متى ينعت صاحبه بالاقدام ومتى يسميه شجاعاً ومتى يصفه بالجرأة . وبعبارة أخرى نحن أحوج ما نكون اليوم الى فقـه صحيح دقيق للغة العربية نعرف منه متى نستعمل لفظاً معيناً فى معنى معين . وهذا إذا تم استتبع حتما سير قلم الكاتب ولسان المتكلم فى سبل مرسومة وطرق معبدة ، فلا يكتب ولا يقول إلا بقدر حاجة الموضوع دون استطراد يحاول به تمكين المعنى فى نفس القارئ أو سامع يخشى أن يفوته القصد

على أنه من الانصاف أن نقرر هنا أن لغة الجدل الفقهى فى مصر قد قطعت شوطاً بعيـداً فيما نتمناه لأسلوب الكتابة على وجه العموم

وأول مثل يحضرنى أسلوب أستاذى طيب الله ثراه المرحوم أحمد بك لطفى ، فقد كانت لغته مرآة مصقولة لفكره الرائق المرتب : ألفاظ سهلة مختارة ، وجمل على قدر حاجة الكلام لا أقل ولا أكثر لا تستطيع حذف عبارة منها حتى يختل المعنى وتضيع الفائدة . أنظر إليه يترافع عن الوردانى فى قضية اهتزت لها جوانب القطر كيف يروى وقائعها فى بساطة وسهولة توطئة لبحثه القانونى :

« نزل رئيس الوزارة المصرية يوم الحادث من ديوانه يحيط

به كعادته رجال الحكومة حتى بلغوا به سلم نظارة الحقانية ولم يكد يودع مشيعيه حتى ابتدره هذا الفتى فأفرغ فيه عدة رصاصات طرحته على الأرض يتخبط فى دمه ؛ أطلقها من مسدس كانت تحمله يد لم تخنها قواها ، يقلبه بقلب كأنه قد من الحديد ، فأنفذ حشوها فيه كما ينفذ الجلاد حكم القضاء فى المنكودين ، ولكن مع الأسف لم يكن حول الفقيد يد شهم مخلص مقدام كيد أحمد البحراوى التى أنقذت سعادة حكمدار العاصمة من الرصاص الذى صوب اليه ، ولذلك وجدت رصاصات ذلك الفتى سبيلاً الى جسم رئيس الوزارة »

بل استمع اليه وهو يختتم هذه المرافعة بتوجيه الخطاب الى المتهم كيف يطلق العنان للعاطفة دون أن يختل ميزان أسلوبه السهل الممتنع :

« أما أنت أيها المتهم : فقد همت بحب بلادك حتى أنساك ذلك الهيام كل شىء حولك . أنساك واجباً مقدساً هو الرأفة بأختك الصغيرة وأمك الحزينة فتركتهما يبكيان هذا الشباب الغض . تركتهما يتقلبان على جمر الغضا . تركتهما يقلبان الطرف حولهما فلا يجدان غير منزل مقفر غاب عنه عائله . تركتهما على ألا تعود إليهما وأنت تعلم أنهما لا تطيقان صبراً على فراقك لحظة واحدة فأنت أملهما ورجاؤهما . دفعك حب بلادك الى نسيان هذا الواجب وحجب عنك كل شىء غير وطنك وأمتك وأخيك فلم تعد تفكر فى تلك الوالدة اليائسة وهذه الزهرة اليانعة ولا فيما سينزل بهما من الحزن والشقاء بسبب ما أقدمت عليه . ونسيت كل أملك فى هذه الحياة وقلت إن السعادة فى حب الوطن وخدمة البلاد ، واعتقدت الوسيلة الوحيدة للقيام بهذه الخدمة هى تضحية حياتك : أى أعز شىء لديك ولدى أختك ووالدتك فأقدمت على ما أقدمت راضياً بالموت لا مكرهاً ولا حباً فى الظهور . أقدمت وأنت عالم أن أقل ما يصيبك هو فقدان حريتك ؛ فى سبيل حرية أمتك بعت حريتك بثمن غال

فاعلم إذن أيها الشاب أنه إذا تشدد معك قضاتك ولا إخالهم إلا راحميك ، فذلك لأنهم خدمة القانون ، وهو هذا السلاح المسلول فوق رأس العدالة والحرية . وإذا لم ينصفوك ولا أظنهم إلا منصفيك ، فقد أنصفك ذلك العالم الذى يرى أنك لم ترتكب ما ارتكبته بنية الأجرام ، ولكن باعتقاد أنك تخدم بلادك . وسواء وافق اعتقادك الحقيقة أو خالفها ، فتلك مسألة سيحكم التاريخ فيها وإن هنالك حقيقة عرفها قضاتك وشهد بها الناس ، وهى أنك لست مجرماً سفاكا للدماء ، ولا فوضياً من مبادئه الفتك ببنى جنسه ولا متعصباً دينياً ، وإنما أنت مغرم ببلادك هائم بوطنك ، فليكن مصيرك أعماق السجن أو جدران المستشفى ، فان صورتك فى البعد والقرب مرسومة على قلوب أهلك وأصدقائك ، وتقبل حكم قضائك باطمئنان ، واذهب إلى مقرك بأمان »

ومثل آخر لأيراد الكلام على قدر المعنى المطلوب تجده فى مذكرات صديقى الأستاذ سليمان حافظ المحامى ، وأغلب ظنى أنه يحتذى إمامنا الراحل . قال فى صدر إحدى هذه المذكرات يحدد موضوع البحث ويبين ما سبق من الرأى ، وينتهى إلى غرضه من الاستشهاد بحكم محكمة النقض . وهذا كله فى أسطر معدودة

« بيعان أحدهما من مورث والثانى من وارث عن عين بذاتها . وبيع الوارث أسبق تأجيلا . فأيهما أحق بالتفضيل ؟ وأى المشتريين تملك ؟ المشترى من المورث أو المشترى من الوارث ؟ ذلك هو موضوع البحث ومناط الفصل فى هذه الدعوى

قد يقال إن العقد الأسبق تسجيلاً هو العقد الأحق بالتفضيل ؛ غير أن نظرية التفاضل بالتسجيل لا محل لها ما لم يكن البيعان صادرين من مالك واحد . وهنا يحق البحث فيما إذا كان الوارث والمورث شخصاً واحداً بمعنى أن الوارث استمرار لشخص المورث ، أو أن لكليهما شخصية قانونية مستقلة عن الأخرى ؟

وقع الخلاف فيما مضى على هذه المسألة فقال فريق إن شخصية الوارث تكمل شخصية المورث أخذاً بقواعد القانون الفرنسى . وقال فريق آخر إنها مغايرة لشخصية المورث طبقاً للشريعة الاسلامية . وتزاحمت الأحكام بين الرأيين ، وانقسم الفقهاء المصريون إلى شطرين ، حتى طرحت هذه المسألة أمام محكمة النقض وأصدرت فيها حكمها بتاريخ ٣ ديسمبر سنة ١٩٣١ : أخذ بالرأى الثانى ووضع نهاية للخلاف السابق »

ترجم هذا الكلام حرفاً بحرف إلى اللغة الفرنسية أو إلى الانكليزية التى اشتهر أهلها بحب الايجاز فلن يجد فيها الفرنسى أو الانكليزى أثراً لحشو أو تزيد مما يؤخذ على كثيرين من كتابنا »

(يتبع)

زكى عريبى
المحامى أمام محكمة النقض والابرام

خواطر فى السياحة

مجاز الشرق والغرب

للأستاذ محمد عبد الله عنان

للسياحة أدب خاص . وربما كان أدب السياحة أقدم أنواع الأدب بعد أدب الأساطير والفروسية . فمنذ القرن الخامس قبل الميلاد نجد هيرودوت أبا التاريخ يجوب أنحاء آسيا الصغرى وفارس والشام ومصر ، ويقدم لنا دراسته ومشاهداته فى أثر ممتع هو الأول من نوعه . وقد جرى أكابر الرحل والرواد فى كل عصر وقطر على تدوين رحلاتهم ومشاهداتهم . ولدينا فى تراثنا العربى طائفة كبيرة من الآثار الهامة التى تعتبر وثائق نفيسة عن أحوال العصور التى كتبت فيها والبلاد والمجتمعات التى تناولتها

وقد كانت السياحة من قبل مغامرة محفوفة بالمشاق والمخاطر ، ولكنها أضحت فى عصرنا هينة ميسورة ، بل غدت متاعاً ونزهة بما مهد لها من وسائل المواصلة السهلة الأمينة فى البر والبحر والهواء ، وتنوعت سبلها ووسائلها ومرغباتها ، وأضحت فى كثير من البلاد التى حبتها الطبيعة بمحاسنها صناعة قومية تنظم لاجتذاب الموسرين والمترفين

ومن الحقائق المعروفة أن السياحة تذكى الخيال وتلهم القلم ؛ ذلك أن السياحة تقدم إلى الكاتب مادة غزيرة من الجديد فى كل شىء : فى الطبيعة والاقليم ، وفى الأشياء والناس ، وفى مختلف نواحى الحياة الاجتماعية ؛ وهى بما تحمل من متاع للنفس والعين والروح تمد الكاتب بذلك الغذاء الروحى الذى يستمد منه صوره ، وتبعث اليه فى معظم الأحيان رغبة ملحة فى التحدث والافضاء بما رأى وشاهد

* * *

وصلنا إلى مرسيليا بعد أن قضينا فى البحر خمسة أيام فى جو هادئ وسير ناعم مريح ، وأرسينا فى الصباح الباكر فى مرفئها الشاسع . ومرسيليا ثغر عظيم ، ولكنها لا تمتاز عن غيرها من الثغور الكبيرة فى مظاهر حياتها ونشاطها ؛ بيد أن ما نلاحظه عادة فى حياة الثغور من تباين فى الناس والمجتمع يبدو فى مرسيليا أقوى وأشد وضوحا . فهنالك يلتقى الشرقيون والغربيون من مختلف الأجناس والأمم ، وتغص بهم شوارعها ومقاهيها وفنادقها ، ولكن هذا المجتمع المتباين يجوز دائماً حياة طائرة غير مستقرة ؛ ذلك أن مرسيليا مجاز فقط بين الشرق والغرب ، تجتازها الجموع مسرعة ، سواء إلى الشرق أو إلى الغرب ، ولا تترك فيها أثراً ، ولا تحمل منها ذكريات ذات شأن

وليس فى مرسيليا ما يجذب السائح المتجول من المشاهد الاجتماعية ويترك فى نفسه أثراً خاصاً سوى حيها الشهير المسمى « الكانبيير La Canebiére » ، فهو قلبها النابض ، يضطرم دائماً بحركة زاخرة مستمرة ، وتجتمع فيه أهم مرافقها التجارية ؛ وهو ثغرها الباسم ، يغص من الجانبين بالمقاهى الأنيقة ، ويغدو بالليل قطعة من الأنوار الساطعة ، ويؤمه المجتمع الأنيق المرح ، وهو أشبه الأحياء بشارع عماد الدين عندنا ، بيد أنه أكثر منه ظرفا وبهاء

ومما يجدر ذكره أن هذا الحى الأنيق « الكانبيير » كان منذ عامين مسرحا لفاجعة دموية مروعة اهتزت لها أوربا ، وكادت تودى بالسلم الأوربى ؛ تلك هى مصرع الملك اسكندر ملك يوجوسلافيا ، ومسيو لوى بارتو وزير الخارجية الفرنسية الذى كان يرافقه فى العربة الملوكية ؛ وقد وقع الحادث على مقربة من ملتقى « الكانبيير » بالميناء القديم ؛ ورأت الحكومة الفرنسية أن تخلد ذكرى تلك الفاجعة المرسيلية باقامة نصب تذكارى إلى جانب المكان الذى وقعت فيه ، وقد سطرت فى رأسه هذه العبارة : « هنا سقط اسكندر ملك يوجوسلافيا ، والرئيس لوى بارتو فى سبيل قضية السلام والحرية ، فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٤ »

أما عن المشاهد الأثرية فليس فى مرسيليا منها ما يستحق الذكرى سوى أثرين : الأول فى داخلها ، وهو قصر لونشان ، وهو قطعة بديعة من الفن تزين واجهته نافورة ضخمة رائعة الجمال ، وتحيط به حدائق عظيمة ، نصبت فيها تماثيل عديدة ، رأينا منها تمثالاً لمسترال الشاعر البروفنسى الشهير ، وآخر

لشاعر الحب والجمال الفونس دى لامرتين

وأما الأثر الثانى فهو خارج الميناء ، فى جزيرة صخرية صغيرة ، وهو حصن « ايف » (شاتوديف) الشهير

وليس لحصن ايف فى ذاته أية أهمية فنية أو أثرية ، ولكنه يلفت النظر بقواعده وجدرانه المنيعة التى قدت من الصخر الهائل ، والتى يتكسر عليها الموج المزبد

وقد ارتبطت بهذا الحصن الصغير الذى أنشأه فرانسوا الأول فى أوائل القرن السادس عشر ليكون سجناً سياسيا ، ذكريات مروعة ، ما زالت أوكاره المظلمة الضيقة تحمل آثارها ؛ ذلك أن هذه الأوكار السحيقة التى لا يكاد يدخلها شىء من الهواء أو الضوء كانت مثوى لطائفة من أكابر الزعماء والساسة ، منهم « ذو القناع الحديدى » الشهير الذى ما زالت شخصيته لغزا على التاريخ ، والذى يعتقد فولتير أنه أخ غير شرعى للويس الرابع عشر ، قضى بسجنه واخفاء وجهه بقناع دائم حتى لا يعرفه انسان قط . ومنهم « ميرابو » خطيب الثورة الفرنسية ، و « فيليب دورليان » ابن عم لويس السادس عشر ، و « لويس فيليب » الذى تولى الملك فيما بعد ، وغيرهم من الزعماء والأكابر الذين سطرت أسماؤهم جميعاً فوق الغرف التى سجنوا فيها

ومن ذكريات « ايف » المروعة تلك المخادع الشاسعة المنخفضة التى تسمى « بمخادع النسيان » Oubliettes والتى كان يزج اليها بعض المغضوب عليهم ، فلا يذكرهم بعد ذلك أحد من أولى الشأن ، وربما تركوا فيها حتى يهلكوا فى غمر الظلام والنسيان

بيد أن لحصن « إيف » ذكرى شهيرة أخرى ، أوحت إلى اسكندر ديما أعظم قصصه وأبدعها ونعنى قصة « الكونت دى مونتى كريستو »

مَن مِن عشاق القصص الرائع لا يعرف « الكونت دى مونتى كريستو » تلك الشخصية العجيبة التى خلقها اسكندر ديما من شخصية أدمون دانتيس سجين شاتوديف ؟ ومن ذا الذى لا تطربه وتشجيه محنة أدمون فى سجنه السحيق ، وقصة اتصاله بالأب فاريا صاحب الكنز العجيب ، ثم فراره من أسره الهائل بعد مخاطرات مروعة ، وحصوله على كنوز جزيرة « مونتى كريستو » ، وظهوره بعد ذلك على مسرح الحوادث فى ثوب تلك الشخصية الخرافية التى يفيض من حولها الذهب والجوهر ؟

فى حصن إيف وكر صغير مظلم قد فى الصخر ، وفيه ثلمة صغيرة تصل بينه وبين مخدع آخر فى مثل روعته وظلامه ؛ فنى أواخر عهد نابليون زج أدمون دانتيس فى المخدع الأول بتهمة مؤامرة ملفقة ؛ وكان جاره فى المخدع الثانى راهب شيخ يدعى الأب فاريا سجن قبله بأعوام طويلة لأسباب مجهولة ؛ ولبث أدمون أعواماً يرسف فى وكره ، وهو يدبر وسائل الفرار حتى وفق إلى حفر ثلمة صغيرة فى جدار كان يظن أنه يفضى إلى فناء السجن أو إلى البحر ، ولكنه ألفاه يفضى إلى مخدع مجاور ، فتعرف بجاره وشريكه فى الأسر ، الأب فاريا ، ووثقت بينهما المحنة أواصر الصداقة ؛ وكان الأب فاريا قد وقف قبل محنته من وثائق كانت فى حوزة بعض الأحبار على سر كنز عظيم من المال والجوهر خبأه الكردينال سبادا فى جزيرة « مونتى كريستو » على مقربة من الشواطىء الايطالية ، فأطلع أدمون على سره حتى إذا فر دونه استطاع الحصول عليه

ثم توفى الأب فاريا فجأة ؛ وكانت العادة أن السجين المتوفى يكفن ويلقى فى البحر ، فدبر أدمون وسيلة عجيبة للفرار خلاصتها أنه بعد أن كُفن الأب فاريا ، وترك فى مخدعه حتى موعد إلقائه ، نفذ أدمون إلى ذلك المخدع من الثلمة الشهيرة ، ووضع نفسه فى الكفن مكان الأب المتوفى ، ووضع الجثة فى مخدعه ؛ وانتظر حتى جاء عمال السجن وحملوه ، وهو مستتر بالكفن وألقوه إلى البحر ظناً أنه هو الأب المتوفى ؛ فاستطاع أن يخرج من كفنه ، وأن يسبح حتى الشاطىء ؛ ونجا بتلك الوسيلة العجيبة ؛ وسافر إلى الجزيرة ، وبحث عن الكنز المنشود حتى عثر به ، وتسمى بالكونت دى مونتى كريستو ، وعاش فى بذخ عجيب ، وهو يعمل للانتقام من أعدائه الذين أوقعوا به حتى أفناهم أو نكبهم جميعاً

تلك هى الحوادث والسير العجيبة التى يثيرها منظر ذينك المخدعين الروعين المتجاورين فى حصن إيف : مخدع أدمون دانتيس وزميله الأب فاريا

ولقد ذكرنا منظر حصن إيف بحصن أقدم وأروع يماثله فى النشأة والغاية هو حصن سانت أنجلو فى رومة ، وهو معقل هائل يرجع إلى العصور الوسطى ، وبه مخادع مظلمة مروعة كانت معقلاً لطائفة من الأكابر ، مثل بنفو نوتوتشلليني الفنان الشهير ، والعلامة جوردانو برونو ؛ وكان مدى عصور سجناً رسمياً لديوان التحقيق (التفتيش) الرومانى ، وكان مسرحاً لكثير من المآسى الدموية وحوادث الفرار الشائقة

***

هذا بعض ما أوحته المناظر والمشاهد المرسيلية إلى الخاطر . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة قصة « البقشيش » (البوربوار) التى قرأنا عنها فى الصحف قبل السفر ، وعلمنا أنها كانت موضع اهتمام خاص من الوزارة الفرنسية الجديدة ؛ فقد استصدرت وزارة مسيو ليون بلوم من البرلمان فى أوائل يونيه تشريعاً يقضى بالغاء « البقشيش » فى جميع فرنسا ، وذلك لما رأته من تغلغل هذا الداء فى جميع المعاملات تغلغلاً يجعله أشبه بضريبة غير رسمية ؛ وقد اعتقدنا حين وصلنا الى مرسيليا أننا تخلصنا من هذا الداء المنغص بفضل المسيو ليون بلوم ، فاذا نحن واهمون ، وإذا البقشيش لا يزال عماد المعاملة فى كل خطوة ، وكل شىء وكان أول مالفت نظرنا فى الفندق إعلان جاء فيه : إنه نظراً لالغاء البقشيش فقد رأت الادارة أن تضيف إلى جملة الحساب عشرة فى المائة نظير الخدمة ! فتساءلنا عندئذ ما الذى ألغاه القانون الجديد ، وما الذى فعلته وزارة المسيو ليون بلوم ؟

ومما يلاحظ الآن فى فرنسا بنوع خاص أن الجبهة الشعبية التى تؤيد الوزارة الجديدة تلقى تأييداً شديداً ، وأن النزعة الديموقراطية التى كانت قد فترت فى العهد الأخير قد عادت إلى حدتها ؛ وفى ذلك ما يدل على أن الشعب الفرنسى يشعر اليوم شعوراً قوياً بما يهدد الديموقراطية من الأخطار ، ويزمع أن يتمسك بنظمه الحرة العريقة ، على رغم ما يعتورها أحياناً من أوجه الفساد والضعف ، وأن يدافع عنها ضد تلك النظم الطاغية الهمجية التى تسود اليوم بعض الدول العظمى ، والتى تحاول أن تسود أوربا القديمة كلها

بورثاندر (سفح البرنيه) فى أواخر يوليه — **محمد عبد الله عنان**

بمناسبة المهرجان الألفى لأبى الطيب فى دمشق

٢ – دين المتنبى

[تتمة مانشر فى العدد الماضى]

للأستاذ سعيد الأفغانى

أنتقل الآن الى الكلام عن اعتقاد أبى الطيب ، وهو الموضوع الذى زلت فيه أقدام كثيرين ، إما لميل إلى الرجل أو عليه ، وإما لاكتفائهم من البحث بأدنى نظرة ، وتعلقهم مظاهر من القول دون نفاذ الى حقيقته ولا تطلع الى ماحف به من قرائن . والحيطة فى هذا ضرورية لمن يريد استنباط أمور من الشعر العربى وخاصة فى عصر كعصر أبى الطيب فشا فيه المدح والغلو والتلاعب بالألفاظ ، وأصبح كل مادح على مذهب ممدوحه فى الأغلب ، فان كان شيعياً أشاد الشاعر بسراة الشيعة ورفع من مقالتهم ، وان كان يقول بالتناسخ مال الشاعر إليه ، وان كان معتزلياً أوسنياً فالشاعر معتزلى أو سنى . . وهكذا دواليك

فشت هذه الظاهرة من النفاق فى الناس وكانت أشد ماتكون فى الشعراء ، حتى لقد شهد المعرى عليهم وعلى عصرهم بذلك ؛ وحسب التاريخ شهادة شيخ المعرة ، فقد أيدها بالدليل ، وأرسل فيها قولاً حكيما يعرف رشده وصوابه كل من أمعن الفكرة ، ولم يكتف بالنظرة . قال بعد أن ذكر تنبؤ أبى الطيب والأبيات تدل على تألهه :

« وإذا رجع إلى الحقائق فنطق اللسان لا ينبىء عن اعتقاد الانسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً وإنما يريد أن يصل به إلى ثناء أو غرض ؛ ولعله قد ذهب جماعة هم فى الظاهر متعبدون وفيما بطن ملحدون . وما يلحقنى الشك فى أن دعبل بن على لم يكن له دين ، وكان يتظاهر بالتشيع وإنما غرضه التكسب ؛ ولا أرتاب فى أن دعبلاً كان على رأى الحكمى وطبقته ، والزندقة فيهم فاشية ومن ديارهم ناشئة . »

وقال فى موضع آخر : « وفى الناس من يتظاهر بالمذهب ولايعتقده ، يتوصل به إلى الدنيا الفانية ، وكان لهم (يعنى القائلين بالتناسخ) فى المغرب رجل يعرف بابن هانىء وكان من شعرائهم

المجيدين فكان يغلو فى مدح المعز غلواً عظيما حتى قال فيه وقد نزل بموضع يقال له رقّادة :

حل برقّادة المسيح حل بها آدم ونوح
حل بها الله ذو المعالى وكل شىء سواه ريح »

فمن الضلال البين إذن أن نلزم أبا الطيب عقيدة ذكرت فى شعره عرضاً ، إلا إذا صحبتها قرائن تقويها وتدل على اعتقاده إياها . وليس من الصواب فى شىء اعتبار الشعر — وحاله ما بيّنا — مصدراً من مصادر التاريخ . وما أجهل المؤرخ إذا حكم على أخلاق سيف الدولة أو كافور بشهادة شعر المتنبى فيهما

بهذا الحذر أخوض الكلام فى اعتقاد المتنبى مع علمى بأنه لم ينظم شيئاً يبين فكرته فى الدين خاصة ، وإنما هى أبيات وقعت فى جملة شعره ، يوسع المؤرخ أن يستأنس بها بعد أن يدرس سيرته

جاء فى خزانة الأدب للبغدادى كلام عن اعتقاد أبى الطيب منقول عن الأصفهانى وهذا نصه :

« وهو (أى أبو الطيب) فى الجملة خبيث الاعتقاد ؛ وكان فى صغره وقع إلى واحد يكنى أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوّسه وأضله كما ضل . وأما ما يدل عليه شعره فمتلون ، وقوله :

هون على بصر ما شق منظره فانما يقظات العين كالحلم

مذهب السوفسطائية . وقوله :

تمتع من سهاد أو رقاد ولا تأمل كرى تحت الرجام
فان لثالث الحالين معنى سوى معنى انتباهك والمنام

مذهب التناسخ . وقوله :

نحن بنو الدنيا فما بالنا نعاف ما لا بد من شربه
فهذه الأرواح من جوه وهذه الأجسام من تربه

مذهب القضائية . وقوله :

فان يكن المهدى من بان هديه
فهذا ، وإلا فالهدى ذا ، فما المهدى ؟ !

مذهب الشيعة (كذا) . وقوله :

تخالف الناس حتى لا اتفاق لهم
إلا على شجب والخلف فى الشجب
فقيل : تخلص نفس المرء باقيـــة
وقيل : تشرك جسم المرء فى العطب

مذهب من يقول بالنفس الناطقة . ويتشعب بعضه إلى قول الحشيشية ، والانسان إذا خلع ربقة الاسلام من عنقه وأسلمه الله عز وجل إلى حوله وقوته وجد فى الضلالات مجالاً واسعاً ، وفى البدع والجهالات مناديح وفسحاً . » اهـ

فأبو الطيب فى رأى هـذا الفاضل : سوفسطائى ، تناسخى قضائى شيعى حشيشى . . مجموعة مذاهب لو فُرقت على مملكة عريضة لخربتها فى يومين ؛ فما الحال اذا اضطلع بها كلها قلب رجل واحد ؟

على أن الشواهد التى استند اليها فى أحكامه هذه لا تحمل ما حمّلها : فالشاهد الثانى (تمتع من سهاد . . البيت) ليس فيه ما يصرح بالتناسخ . وقوله : « فان يكن المهدى ... » يخرجه من الشيعية اخراجاً ، لأنه شك فى المهدى أول البيت ، ثم جعل ممدوحه هو الهدى إن كان هناك مهدى ، ثم ختم البيت بهذا الاستفهام التهكمى : ما المهدى !!؟

وإن دل الشاهد الأخير (تخالف الناس . . البيتين) على شىء فعلى تردد أبى الطيب بين القولين وعلى شكه وحيرته بدليل البيت الذى بعدهما :

ومن تفكر فى الدنيا ومهجته أقامه الفكر بين العجز والتعب

والذى استفدناه من كل ذلك أن المتنبى وقع فى حداثته الى رجل من المتفلسفة فهوّسه وأضله ، والظاهر أن أثر هذا الأستاذ كان فى أبى الطيب بالغاً ، فقد بقى ضعف العقيدة وعدم الاعتداد بآداب الدين ملازماً أبا الطيب حتى مات

ومهما يكن فقد ألم المتنبى بكثير من النحل الشائعة فى عصره دون اعتقاده بواحدة ما . وذكر بعضها فى شعره منزّلة خير تنزيل : مدح طاهراً العلوى مرة فقال :

اذا علوى لم يكن مثل طاهر فما هو الا حجة للنواصب

والنواصب الخوارج الذين نصبوا العداء لعلى

وذكر المانوية أصحاب الاثنين الزاعمين أن الخير كله من النور وأن الشر كله من الظلام فقال :

وكم لظلام الليل عندك من يد تخبّر أن المانوية تكذب

وعرض لذكر المجوس ومذهبهم فى نكاح الأخوات حين أراد الثناء على حسن امرأة ود أخوها لو كانت تحل له لفرط جمالها فقال :

يا أخت معتنق الفوارس فى الوغى
لأخوك ثَمّ أرق منك وأرحم
يرنو اليك مع العفاف وعنده أن المجوس تصيب فيما تحكم

ووقع فى شعره ذكر كلة يصح أن يتعلق بها من يريد جر أبى الطيب الى طائفة ما ، وهى كلة (الوصىّ) فى قوله :

هو ابن رسول الله وابن وصيه وشبههما شبهت بعد التجارب

وقوله :

وتركت مدحى للوصى تعمداً إذ كان نوراً مستطيلاً شاملاً

وقد فرغت من بيان أن مثل هذا لا يدل على شيء ، ولا ينهض دليلاً ولا بعض دليل ، لجريان عادة الشعراء بمجاراة الممدوح فى عقيدته ورأيه

***

وبعد ، فان لم يكن للحكم على دين المتنبى مجال فى شعره ، ففى تلك الشناعات القبيحة التى زجه فيها الغلو فى المدح حتى قل أدبه مع الله ومع رسله وكتبه ، حين زعم لممدوحيه علواً يرفعهم إلى ذلك المستوى . والمدح متى جاوز الواقع فهو محظور فى كل الأديان فكيف إن كان بالباطل وإلى التغالى . دع ما يريق من ماء وجه المادح وما يكسر من عزته ويضيع من كرامته . ومتى كان مسلما من لا حياء له ولا عزة ولا كرامة ؟

وودت والله لو أن شعراءنا هجروا هذا الباب ، باب المديح ، مرة واحدة بمحاسنه ومقابحه ، وشغلوا عنه بغيره من فنون القول الواسعة ، فما هو بالفن المشرف ولا المأسوف عليه إن فقد . وقد حفظ الأدب العربى كثيراً من المبالغات الممقوتة والغلو الشنيع ، ولكن ما فى ديوان أبى الطيب وحده هو بكل ما فى مكتبتنا قبحا وشناعة واساءة أدب :

مرة يحاول السجود لممدوحه فلا يكفه الا الزجر :

طلبنا رضاه بترك الذى رضينا له فتركنا السجودا

ومرة يشرك هذا الممدوح بالله فيقول :

ما يرتجى أحد لمكرمة الا الالـه وأنت يا بدر

ويقول :

ترى القمر الأرضى والملك الذى له الملك بعد الله والمجد والذكر

ويقول :

اذا بقيت سالما أبا على فالملك لله العزيز ، ثم لى

ويقول :

أنا مبصر وأظن أنى نائم من كان يحلم بالالـه فأحلما

ويقول :

تتقاصر الأفهام عن ادراكه مثل الذى الأفلاك فيه والدنا

يعنى الله سبحانه . ويستخف تارة بالمصطلحات الدينية استخفافا ظاهراً فيقول :

يترشفن من فمى رشفات هن فيه أحلى من التوحيد

وقدأرادوا تأويل هذا البيت فكان التكلف والتعسف ظاهرين فى تأويلهم . وقال :

وأعطيت الذى لم يعط خلق عليك صلاة ربك والسلام

وجعل ممدوحه أعظم معجزات النبوة فى قوله :

وأبهر آيات التهامى أنه أبوك وأسمى مالكم من مناقب

وهو لا يرى لممدوحه شبيها أبداً فيقول :

لم يخلق الرحمن مثل محمد أبداً وظنى أنه لا يخلق

ويقول :

ان كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام

وانظر هذا الغلو الممقوت فى قوله :

لو كان علمك بالالـه مقسما فى الناس ما بعث الالـه رسولا
لو كان لفظك فيهمُ ما أنزل الـ قرآن والتوراة والانجيلا

وفى قوله :

أوكان صادف رأس عاذر سيفه فى يوم معركة لأعيا عيسى
أو كان لج البحر مثل يمينه ما انشق حتى جاز فيه موسى
يا من نلوذ من الزمان بظله أبداً ونطرد باسمه ابليسا

وهذا الهذيان ما معناه ؟

يأيها الملك المصفى جوهراً
من ذات ذى الملكوت أسمى من سما
نور تظاهر فيك لا هو تيّهُ فتكاد تعلم علم ما لن يعلما

وهو حيناً كالمسيح (ما مقامى بأرض نخلة . . . البيت) وحيناً كصالح (أنا فى أمة . . . البيت) ولا يخجل بعد هذا الادعاء أن يضرع الى من سجنه بهذه العبودية :

أمالك رقى ومن شأنه هبات اللجين وعتق العبيد

هو من حداثته مهوس مضلل لم يستنر قلبه بنور عقيدة ، ولا شعر صدره ببرد يقين . فلم ينشأ تنشئة دينية فى صباه ، ثم

طرح الى هموم الحياة وأتعابها فاضطر الى التكسب بالمدح من صغره ، وشغل عن عبادة الله والتدين بعبادة الناس والمال لهذا السبب ، لا « لأنه صاحب مطامع دنيوية وعقل موكل بالأعمال والوقائع لا بالعقائد والعادات (١) » فليس هناك تناف بين التوكيل بالأعمال والتدين ، ولم يخل المتدينون يوماً عن مآرب ومطامع فى هذه الحياة

وهذا وليس للمتنبى فلسفة آلهية حتى نقول إنه استهان بالدين تفلسفاً ؛ وليس لعقله ما لعقل أبى العلاء من مواهب تؤهل صاحبها للنظر والحكم فى المقالات والمذاهب ، بل هو فى هذا الاستخفاف الذى نم عليه شعره لا يترفع كثيراً عما نرى عليه بعض العامة المستخفين

* * *

كان الى جانب المحن والثورات الداخلية التى منى بها المسلمون فى القرن الرابع غارات أجنبية متواصلة تشن على ثغور المسلمين ؛ وكان أمراء العرب فى تأهب مستمر لرد هذه الغارات فيظفرون تارة وتارة يغلبون ، وسيف الدولة أحد هؤلاء الأمراء الذين أصلوا الروم بنيرانهم وشغلوا برد غاراتهم

ونزعة الحروب فى الشرق — قديما وحديثا — دينية أبداً ما تغيرت يوما من الأيام ، إلا أن الروم كانوا فى القرن الرابع الهجرى صريحين ، لم يهتدوا بعد الى هذا الطلاء الكاذب الذى أسموه تمدينا بعد عشرة قرون (٢)

وشاعرنا أبو الطيب شارك سيف الدولة فى جهاده الدينى فقاتل بجسمه وتعرض للخطر ، وناضل بلسانه . وفى شعره من مواطن الغيرة على الدين وأهله من تسلط الروم ما يحمل المنصف على عدها فى حسناته ، كان يرى هذه الحروب كما كان يراها غيره من أهل زمانه وكما هى فى الواقع — دينية لا قومية ، وهذا هو الفارق بينها وبين حروب سيف الدولة مع خصومه من الامراء . فكانت قصائد أبى الطيب التى يصف فيها هذه الحروب تطفح بالحمية الدينية والنزعة الاسلامية ، فهو يثنى على سيف الدولة الذى هزم الدمستق وأنقذ المسلمين من إكراه الروم لهم على الردة فيقول :

نخرّوا لخالقهم سجداً ولو لم تغث سجدوا للصُّلُب

ولم تعجبه هدنتهم مع الروم فقرعهم ومدح سيف الدولة لتدينه فقال :

أرى المسلمين مع المشركـ ين فاما لعجز وإما رهب
وأنت مع الله فى جانب قليل الرقاد كثير التعب

ومن هنا تلقيبه سيف الدولة بسيف الرب وسيف الدين فى أقواله :

أيا سيف ربك لا خلقه ويا ذا المكارم لا ذا الشطب
يا سيف دولة دين الله دم أبدا وعش برغم الأعادى عيشة رغدا
يا سيف دولة ذى الجلال ومن له خير الخلائف والأنام سميا
خضعت لمنصلك المناصل عنوة وأذل دينك سائر الأديان

ونعته بنفرته الشديدة من الردة وتعلقه بالاسلام فقال :

كأن سخاءك الاسلام تخشى اذا ما صلت عاقبة ارتداد

وهو رجاء الاسلام والموقى من الرحمن ونصير التوحيد :

ولست مليكا هازماً لنظيره ولكنك التوحيد للشرك هازم
هنيئاً لضرب الهام والمجد والعلا وراجيك والاسلام أنك سالم
ولِمْ لا يقى الرحمن حديك ما وقى وتفليقه هامَ العدا بك دائم

أبو الطيب يذهب أبعد من هذا : لا يكتفى باستنكار سلطان الروم على قومه ، بل يأنف لهم أن يحكمهم مثل كافور ، وإن كان مسلماً مثلهم ، ولا يرضيه سكوت الناس عليه ؛ ويغضبه أن يعظموه فيصرخ فيهم هذه الصرخة ويعرض بأم كافور :

نُوَيبيّة لم تدر أن بنيها الـ نوبى دون الله يعبد فى مصر

ثم يرسلها ملعلعة تنزى بالألم والحسرة والأسف على ما صار اليه الاسلام فيقول :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القزم

رحم الله أبا الطيب ! ما تراه كان قائلاً لو بُعث اليوم فشاهد ما نشاهد ! إذن لرأى هؤلاء الأعبد القزم شرفاء قياساً إلى غيرهم ، بل أنبياء

* * *

لصاحبنا ازاء ما تقدم من أبيات يأباها الدين والعقل ، أبيات أخرى هى من صميم الدين وروحه ، يتقاضانى الانصاف ذكر شىء منها كما ذكرت تلك ، فقد نص فى بعضها على أنه لا يخضع لمخلوق أبداً

تغرب لا مستعظماً غير نفسه ولا قابلاً إلا لخالقه حكما

(١) كلمة الأستاذ العقاد فى كتابه مطالعات ص ١٢١

(٢) ومع هذا فقد قال الجنرال اللنبى حين دخل القدس فاتحاً : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » وناهيك بها صراحة فاضحة

وقد جعله أبو العلاء بهذا البيت من المتألهين . ويعترف بتصرف الله المطلق فى الكون :

ألا انما كانت وفاة محمد دليلاً على أن ليس لله غالب

وأن الله هو الملحوظ فى كل فعل وحركة :

فأنت حسام الملك والله ضارب وأنت لواء الدين والله عاقد

وهذا البيت ينظر إلىّ قول الله مخاطباً نبيه : « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » وهو يجعل شكر الله واجباً فى دوام النعمة حين قال فى ممدوحه :

مقلداً فوق شكر الله ذا شطب لا تستدام بأمضى منهما النعم

وكما أبى قبول الحكم من غير خالقه أبى الشكوى إلى الناس وهذا غاية ما يأخذ به الموحد نفسه :

ولا تَشَكَّ الى خلق فتشمته

شكوى الجريح الى الغربان والرخم (١)

ولنذكر أن صاحب دمشق وكان يهودياً يعرف بابن ملك حمل المتنبى على مدحه فأبى أنفة ، وكذلك فعل مع ابن كيغلغ وكان رومياً

هذا ما رأيت فى شعر أبى الطيب من تعلق بالدين سلباً أو إيجاباً ، ذكرته على حقه بحرية وصراحة . أما سيرته العملية فقد ذكروا له أخلاقاً يحمده عليها الدين وهى عفة المذهب والصدق . وقد كان المتنبى — كما ذكروا — لم يؤثر عنه فسوق قط . وقوله إنى على شغفى بما فى خمرها لأعف عما فى سراويلاتها ..الخ صحيح كل الصحة فى الدلالة على عفته ، فقد أيدته سيرته طول حياته . وكذلك فى التزامه جانب الصدق :

ومن هوى الصدق فى نفسى وعادته

رغبت عن شعر فى الرأس مكذوب

ثم ذكروا له خلالاً ثلاثاً دلت على أن الرجل لم يأخذ نفسه بشىء من التكاليف الشرعية ، أى لم يكن مسلماً بالعمل . قال أبو حمزة البصرى :

« بلوت من أبى الطيب ثلاث خلال محمودة : هى أنه ما كذب ولا زنى ولا لاط ، وبلوت منه ثلاث خلال مذمومة وهى أنه ما صام ولا صلى ولا قرأ القرآن . »

فاذا أضفت الى ذلك ما تعرف فى سيرته من البخل والتعاظم وسلاطة اللسان ، وأن له فى القذف فحشاً ما عرف أقبح منه ولا أدنس ، استقام لك من كل ما قدمت رأى لعله أن يكون أقرب الآراء من صواب

وأنا لست أقول فيه ما قالوا من أنه : « خبيث الاعتقاد قد خلع ربقة الاسلام » ولا أتكلف له التأويل والمحال ، فقد قدمت الاشارة إلى بطلان المذهبين معاً

ولكنى ألاحظ أنه شاعر ، والشاعر كثيراً ما يبيع دينه بدنيا غيره ، فان خرج على الاسلام فى غلوه فما قصد إلى هذا الخروج قصداً ، وإنما أراد الزلفى عند الممدوح ، فأداه الغلو إلى الخروج

وليس من الحق أن نحكم على آخرة رجل بنزوة كانت منه فى الحداثة ، أو حماقات صدرت فى فترات من حياته . ومن ذا زعم أن أبا الطيب كان يعتقدها اعتقادا حتى يجعله بها صاحب مذهب فى الدين ، وقد علمنا أن عقله لم يفرغ لهذا قط ؛ فمن سره أن يجر النوابغ المشهورين إلى طائفة بالسلاسل والأغلال ، يكثر بهم سوادها فما أرانى مضطراً إلى شىء من هذا ، وقد فرغ أهل البصر من هلهلة هذه الطريقة التى سلكها بعض المؤلفين الحديثين فى كتب التراجم جهلا وعصبية ، فما هى إلى علم ولا إلى أمانة . والحكم على دين رجل أبعد منالا من أن يكتفى فيه بورود اسم هذا الدين فى كلامه ، فما بالك إن كان ذكره له مجاراة أو حكاية أو ردا أو شتيمة ؟

وقد ذكر المتنبى فى شعره هذه الديانات : المانوية ، المجوس ، اليهود ، النصارى ... الخ أفيستقيم فى هذا الزمان أن ينهض منتسب إلى العلم فيعد أبا الطيب مانوياً أو مجوسياً ؟

إن العلم والأدب أمانة ، فلينظر قارئ فى كتاب ما ترك مؤلفه من عقله وأمانته وما أخذ

أما أنا فأستطيع الآن بعد ما قدمت من بحث تحريت فيه بجهدى ، ودعمته بما رأيت من برهان أن أرسل كلمتى مطمئناً فى دين أبى الطيب فأقول :

آمن لسانه وتخلف عمله ، ولم يكن الدين همه يوما من الأيام

(دمشق) سعيد الأفغانى

---

(١) نسب للمتنبى هذان البيتان :

أبعين مفتقر إليك نظرتنى فأهنتنى وقذفتنى من حالق

لست الملوم ، أنا الملوم لأننى أنزلت آمالى بغير الخالق

وهما وإن كانا فى الجملة والمذهب يؤيدان بيت المتنبى المذكور — بعيدان — فى رأيى — عن روحه ، فلم يألف أبو الطيب الاعتراف باهانة نفسه وقذفها من حالق

فى النقـــد أيضاً

بقلم محمد مظهر الجلاد

إلى الأساتذة الأكابر :

كان للفصول التى كتبتموها فى النقد أثر كبير فى كشف غوامض العلل التى أصابت الأدب والنقد معاً ، وما أرانى تكلفت الصبر فى شىء كما تكلفته فى انتظار « الرسالة » حين كتابة هذه الفصول . وإنى لها لعلى انتظار واشتياق

كتب الأستاذ الزيات مقالين فى « الرسالة » افتتح بأحدهما باب النقد واختتمه بالآخر ، وكانت بينهما معركة ، وكانت بينهما نفحة من نفحات النصر الجميل تخطَّر لها الأدب ، وانتعش بها النقد ، والتذت بها الفكرة ؛ حتى إذا تمتع الطرف ، وأرهف الحس وثارت العاطفة علا هُتاف الالهام يقول : ألا إن لله فى أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها

كتب الأستاذ أحمد أمين مقالين ألقى فيهما مسئولية النقد على الشيوخ ردَّ فى غضونهما الدكتور طه حسين على الأستاذ الأمين ؛ ثم كتب الدكتور هيكل فصلاً رمى فيه تبعة النقد على الشباب ، ثم ختم الأستاذ الزيات مقاله قائلاً : « الحق إن ركود الأدب وفوضى النقد لا يرجعان إلى الشيب ولا إلى الشباب ، وإنما يرجعان إلى تهريج الصحف وكسل الكتاب »

وأنا لا أجد بأساً من التعليق المجمل على ما كتبه السادة الأدباء فى هذا الموضوع ، لا لأنى سأزيد على ما كتبوه شيئاً لم يكن ، وإنما هى كلمة الأستاذ الزيات أثارت فى نفسى شيئاً حملنى على الكتابة ، ووجدتنى مضطراً إلى التعبير عن هذه الثورة ، وألجأتنى إلى الخجل والاستحياء من أساتذتى الكرام ، حيث كتبت فيما يكتبون ، فى حين أن البون شاسع بينى وبينهم ؛ غير أنى لم أنس أيضاً أن للتلميذ حقاً كما أن للأستاذ حقاً ، ولكل منا مقام

أبدع الأستاذ الأمين فيما كتب ؛ غير أنى أعتقد أن علة النقد ترجع إلى أساسين اثنين : أحدهما العلم ، وثانيهما الخُلُق . فأجاد هو فى شرح أكثر الأول ، ولا أدرى علامَ أرجأ الثانى . وهو أحد الأساسين ، وهو الذى يقول فيه الأستاذ الزيات : إنه سطوة الهوى ، وفتنة الغرور ، وغلبة العاطفة

إن الأدب والذوق والعلم عدة النقد الكافية ، وإن هذا الأدب والذوق والعلم ليثقف العقول ويرهف المشاعر ، وإن هذه العقول وهذه المشاعر لتبدع النقد ، وتجيد التمحيص ، وتعرف موضع الداء والدواء . وبقى أن نعرف أن هذه الملكة الأدبية الصافية قد تتحوّل عند النقد أحياناً أو أبداً إلى ملكة نفسية تتصرف بالقلم لا كما يشاء الأدب والفن ، بل كما يشاء الغرور وكما يريد الهوى

ليت شعرى أى رجل من الرجال يتقلد مفاتح النجاة من حق فاضح ، وحكم صحيح ، ونقد نزيه ، ثم لا يفر من خصمه بأى أساليب الحيلة شاء ، وبأى ضروب القول أراد ، إذا لم يؤت سَعَة فى الصدر وقوة فى الخُلق ترغمه على قبول الحق مهما يكن مُراً ؛ ولا سيما من أوتى قوة الجدل المنطق والحوار اللانهائى

أين ذلك الخُلق الذى يقول : أخطأ عمر وأصابت امرأة . هناك ناس يخبطون فى النقد خبط عشواء ، فلا يحملون فى نفوسهم غير الضغينة ، ولا تعرف ألسنتهم غير البذاء . وكم يتعجرف هؤلاء وكم يجحدون لأنفسهم من مكانة ، ولأدبهم من شعر وفن وجمال ، ولنقدهم الصحة والدقة والذوق ؛ فهم يتطاولون ليجثموا فوق القمر ، ويجالسوا على النجم ، ليكون للناس منهم نصيب وافر وحظ عريض

وهناك من ينقد عن بصيرة وعلم ، فهو يفتش عن علل العيب فى خصمه ، لا لينقده ويرشده إلى الصواب ، بل ليحط من قدره وينال من كرامته . فأنت تجد فى نقده الصحة والذوق والسمو ، ولكنك لا تجد طهر السريرة ونزاهة النقد . على أن هناك أساتذة أدباء وهبهم الله العلم والذوق والخُلق الجميل يكتبون بلغة الناس وروح السماء ، لا تكاد تقرأ لهم شيئاً حتى تخال نفسك طائراً ملائكياً يسبح فى عالم الجمال ، فيه الملائكة والروح تتنزل باذن الله على من يشاء من عباده

لا بد من الأخلاق فى هذا الموضوع إذن ، وإنها لمن أكبر ضروراته وأعظم مميزاته ؛ وأنا أعرف أن النقد شىء والخلق شىء آخر ، ولكن شدة الصلة بينهما وقرب الوشيجة دعوانى لربط أحدهما بالآخر ، وما أرى أن أحداً ينكر علىَّ هذا

وأرى أيضاً أن فى النقد الحاقد المشوه هدماً لكيان أمة برمتها وسبباً من أسباب الأحن الفتاكة التى تكبر وتكبر حتى لكأنها دولة فيها الجند والأسطول والمدفع والغاز لا تهدأ إلا لتثور ، ولا تخمد إلا لتستقر ، وهكذا دواليك .

لعل قائلاً يقول : إن النقد اللاذع يبعث على النضج الأدبى السريع إذ تشحذ الأذهان ، وتبرى الأقلام ، وتلهب الغيرة ، ولن يتاح هذا الانتاج السريع بهدوء النفس وفتور المشاعر ، فنقول له : إن ما يخسره الأدباء من الصلة الأدبية بينهم وما يكون من اجتماعاتهم وروابطهم حيث تعطى عصارة الرأى وناضج الأدب وصرف الجمال ، أكبر من الربح السريع فيه معانى التجزئة ، وحقيقة التشويه ، وذل الأمة

النقد النزيه وحده كاف لأن يكون أثراً فعالاً وقوة ربَّضة لايقاد الشعور وتحفيز الهمة . ولِمَ لا وقد يجد المنقود فى النقد النزيه أخاً يجادله فى حب ، ويناظره فى لين ، ويكاتبه فى ابتسام وسرور . وكم يجد لمزائه من سلوة حينما يجد ناقده النزيه يكشف له عن عيبه فى رقة وعن خطئه فى إشفاق . ولا تنس أن ذكر المحاسن فى النقد والتماس التشجيع فى امتداح الجودة وشكر الجميل وسيلة كبرى فى نشر الثقافة ورقى الأدب وانتصار النقد

قد يحجم أكثر المتأدبين عن النقد ويركنون إلى الدعة والراحة إذا ما رأوا كاتباً من الكتاب يحترق فى لهيب النقد الغاضب راضين من الغنيمة بالاياب ، وتلك هزيمة منكرة تشنها الفوضى الأخلاقية على العقل والعلم والأدب والنقد جميعاً ، كما أنى لا أقصد الافراط فى التلطف والشكر على قبيح يشوه حقيقة النقد من أجل رعاية الخلق والأخلاق . لا . وإنما أريد الاعتدال والنصفة ، حيث يلتقى كلا الخصمين على شاطئ الأخاء يقودهم الأدب إلى حيث اللقاء الدائم والصفاء المستمر

محمد مظهر الجلود

شعراء الموسم فى الميزان

نقد وتحليل

للأديب عباس حسان خضر

— ٤ —

ميلاد الرسول

كانت هذه القصيدة من أقوى العمد التى قام عليها نجاح الموسم ، وقد عرف الأستاذ محمد الأسمر كيف يحكم فيها الصلة بين وجدانه ووجدان المستمعين باختيار الموضوع ، وحسن الالقاء ، وبراعة التأدية . وإذا كانت الطبيعة الشعرية خصبة ، وكان التعبير عما تنتجه ، وتوصيل هذا التعبير إلى (مستهلكى) الشعر جيدين ، فقد بلغ الشاعر ما يرمى اليه من غرض الاجادة . فما حظ هذه القصيدة من ذلك ؟ اليك منها فى وصف يوم ميلاد الرسول :

يوم أغر كفاك منه أنه   يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غابر كل يوم قبله   يثنى اليه جيده متطلعا
فلو استطاع لكر من أحقابه   وثبا على هام السنين ليرجعا
ويكاد مقبل كل يوم بعده   ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه   وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام فى الشرف الذى   ملأ الوجود فلم يغادر أصبعا

فانظر كيف يمثل الزمان فى ركب يبرز فى وسطه يوم الميلاد كأنما هو المقصود من الدهر كله ، فالأيام قبله تتطلع اليه وتود الرجوع اليه ، والأيام المقبلة توشك أن تفلت من نظام الركب لتسرع اليه ، وكلها تتنافس لنيل شرف الميلاد النبوى ، ومجمع هذه المعانى قوله : « كأن الدهر فيه تجمعا » فهذا التعبير فى تفرعه إلى تلك المعانى يشبه مقذوف النور الذى ينبعث فى الجو على شكل شرارة مقتضبة ، فلا يلبث أن ينبسط متفرعا إلى شجرات أوطائرات أو غير ذلك ، وهكذا يكون فى المولد النبوى !

فهذه الطبيعة التى تنتج هذا الخيال ، هى — ولا شك — صالحة لانتاج الشعر الذى تتم جودته بمثل ذلك التبيين الذى يزاوله

ومن أبيات القصيدة التى لا تصدر إلا عن طبيعة فنية قوله :

والحق أخفى ما يكون مجردا   وتراه أوضح ما يكون مدرعا

بعد أن تنظر إلى التركيب من حيث تأديته للمعنى التأدية

العادية ، قف عند كلمة « أوضح » فهى بعد أن تعبر عن وضوح الحق والانصياع له إذا كانت تلابسه القوة ، تومئ إيماءة لطيفة إلى وضوح الحق ملبساً بالدروع الملتمعة

وقوله معبراً عن زوال ملك فارس والروم بالفتح الاسلامى :

من لم تزعزعه العواصف قبلها   بعثت له بنسيمها فتزعزعا

فقد صور الشاعر روح الشريعة السمحة وما تشمله من لطف ورقة بالنسيم ، ولكنه أوضح أن النسيم الاسلامى كان قوياً فى لطفه ورقته قوة زعزعت ما تقاصرت عنه عاتية العواصف

والأستاذ الأسمر يسوق المعانى فى الألفاظ ، فتطربك من ذلك وحدة مركبة ، وهذا قوله فى مطلع القصيدة :

فجر أطل على الوجود فأطلعا   شمسين شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى   من بعده شيئاً كمكة موضعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدع   لألاؤه فوق البسيطة موضعا

فليس من الميسور الفصل بين جمال هذه المعانى وجمال قوالبها

ومن الغريب أن القصيدة مع تجاوز معظمها أصل الموضوع وهو ميلاد الرسول قد جاءت وحدة منسجمة ، فقد تخلص الشاعر — بعد نحو ثلث القصيدة — من القول فى ميلاد الرسول إلى الافاضة فى الدعوة الاسلامية ومدح الرسول : فذلك الخير الذى أصاب الناس بميلاده ، والسنا الذى أزاح الله به الظلمات قد

وافى وليل الجاهلية مطبق   فانجاب عن جنباتها وتقشعا

ومن هنا ينقطع الحديث عن الميلاد الذى هو موضوع القصيدة ، ويشغل معظمها مدح الرسول والاشادة بدعوته ؛ ولكن ما غاية الميلاد ؟ أليست وجود هذا الرسول العظيم ، وأثر دعوته للناس إلى الهدى ؟ قد يقال هذا ، وقد تكون عليه مسحة من الوجاهة ، ولكن كان ينبغى أن يكون أكثر القصيدة فى أصل الموضوع . ولن يخدعنا الشاعر عن ذلك بصنعته فى جمع الشتات والتأليف بين الأجزاء

وفى القصيدة كثير من المعانى المطروقة التى اعتورها جمهور الشعراء قديماً وحديثاً ، حتى أصبحت (منافع عامة) كقوله :

نادى إلى الحسنى فلما أعرضوا   واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فان بدا   مستلئما لاقى الطغاة فروعا

وقوله :

بعض الأنام إذا رأى نور الهدى   عرف الطريق ، ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا ينتهى   عن غيه حتى يخاف ويفزعا

التجديد والتقليد

الأستاذ محمد الهراوى على رأس المحافظين من الشعراء ، فهو يسخر من دعوة التجديد ، ويعلن هذه السخرية فى هذه القصيدة . على أنه يجب أن ينصف نفسه ، فما أظنه يكره التجديد فى ذاته ، وإن كان يحمل على أدعياء الجديد الذين يسترون سخفهم بدعوى التجديد . . ولما كان هؤلاء قد ملأوا الجو بصيحاتهم الجوفاء ، فقد أصبح التجديد فى نظر الشعراء كلمة مقرونة بذلك السخف ، وأصبح السخف من مدلولات التجديد ! والحق أن التجديد مظلوم بين هؤلاء وهؤلاء . ويشير الأستاذ الهراوى إلى ريبته فى الجديد بقوله :

يا قادة الرأى الجديد تحية   لو صح زعمكمو ، وألف سلام

فهو يرتاب فى زعمهم أنهم مجددون ، وأنهم قادة الرأى الجديد . وهو فى القصيدة كلها يفند دعواهم فى التجديد ، ويردها إلى تقليد الغربيين : فالقصص ليست جديدة ، فأسواق الغرب مزدحمة بها ، على أن مهد القصة هو الشرق ، وهذه قصص ألف ليلة وليلة والشهنامة قد نشأت فيه ، وهذا القرآن زاخر بالقصص السامية

وملاحم اليونان أهى جديدة   وحديثها من قبل ألفى عام
أتعيد ثرثرة الحديث مجدداً   وترده لخرافة الأصنام

ثم جعل الأستاذ الهراوى يتهكم على تعبيرات « المجددين » بقوله :

فتقول : « فى إثنين يوم » مثلهم   لا « فى مدى يومين فى الأيام »
وتقول : « مثل الثلج غرة وجهه »   لا « مثل وجه البدر حين تمام »
وتقول : « مثل الأرز مبسم ثغرها »   لا « الدر فى نسق وحسن نظام »
وتقول : « أوكازيون » يا من يشترى   وتقول : هذا السعر « للركلام »

وفى هذه الأبيات ركاكة مرجعها العبارات التى يحكيها عن « المجددين » فالاسفاف فى الأصل ، وناقل الاسفاف ليس بمسف ، والشاعر يهجو بهذه الأبيات صنيع المجددين ؛ ويقولون : « إذا هجوت فأضحك » فهو ينحو فيها منحى الفكاهة ، وهذا المنحى يقتضى التبذل فى التعبير . واستمع إلى ما قاله بعد ذلك ، وقد جدا الجد :

أنكرتمو الأعلام فى أوطانكم   فى ذكر ما للغرب من أعلام
فكأنما الغربى فى آدابه   هو وحده المختص بالأحكام
ماذا من التجديد فى تقليدهم   غير الرجوع لأظلم الأيام
لم يضربوا مثالاً لنا من صنعهم   بكراً ولا جاءوا برمية رام
لقطوا فتات الأجنبى وأقبلوا   يتلمظون لنا بشبه طعام

ورمول بما التقطوا كأنا عندهم ... قطط الموائد تكتفى بعظام

هذا هو (الكلام الجد) بقوله (زعيم المحافظين)

إلى هنا ينتهى شأن الشاعر مع المجددين ، ويبتدىء مع النقاد شأناً آخر ، فيقول :

مالى وللنقاد أسمع رأيهم ... ما قادنى عقلى الى الأوهام
لى خطة وحدى وملء عقيدتى ... رأيى وعقلى رائدى وإمامى
وطنى هو الملى علىّ قصائدى ... جددا وشعرى لوحة الرسام

فكيف لا يسمع رأى النقاد ؟ وهل خطة الشاعر ورأيه وعقله وإملاء وطنه عليه قصائده — هل هذه الأشياء تمنع من سماع رأى النقاد ؟

وطنى

قبل أن أسطر هذه الكلمات محوت كلمات وسطوراً ، إذ أننى عند ما شرعت أكتب عن هذه القصيدة شككت فى كل كلمة كتبتها ، فأنا أريد فيما أكتبه عن هذه القصيدة خاصة أن أطبق المفصل ، كما يقولون ، فليس ينبغى إلا أن يقال عنها مثل ما قيل فيها .. ولعل هذا إيحاء من القصيدة وما صنعه فيها الأستاذ محمد المهياوى من الدقة والتجويد ، وليس هذا كل ما صنعه ، وليس هو فحسب الذى أوحى الى المهابة ، إن الذى أوحى الى المهابة هو ما أوحىَ الى الشاعر من المعانى السامية والروائع الوطنية التى ضمنها القصيدة ، والتى ألهمته إياها مصر ، كما قال :

أبدا يلج بك الحنيـ ... ـن لذات ملهمة الحنين

فجعل يبعث إيحاءه الى النفوس فتمتلىء بما امتلأت به نفسه وتتأثر بما تأثرت به . وها هوذا يقول فيما تعانيه مصر من سالبى حريتها :

قل للذى بر اليميـ ... ـن على يديه ردي اليمين
أضنى المثين من الوعو ... د الخلف أو فوق المثين
أنت الذى أفتى السجيـ ... ـن بحسن منقلب السجين
وضع القيود وقال ما ... أشجى رنينك من رنين
فاشرب على شدو الحديـ ... ـد حلاوة الرق الحنون
واغنم رخاء الطوق جا ... ور حبله حبل الوتين

فترى فى هذا الشعر آلام مصر مصورة تصويراً دقيقاً ، تنتظمه الروح المصرية الصميمة ، تكسو كل ذلك أردية عربية متينة .
وقوله : « فاشرب على شدو الحديد . . الخ » من الشعر المرقص

وقد ظهر لى مأخذ فى الأبيات الآتية ، وهو من المآخذ التى لا تظهر إلا فى الشعر الجيد ، قال يخاطب مصر :

أجريت فيض مدامع ... من نيلك الباكى الحزين
حمراء حيناً كالدم الـ ... ـجارى على الداء الكمين
فاذا تطامن جأشك انـ ... ـهملت كصافية الشؤون

فهو يقول إن المدامع تكون حمراء فى حين ، ولم يبين هذا الحين ، ثم يقول إذا تطامن الجأش انهملت الدموع صافية ، فكيف تنهمل الدموع فى حالة سكون الجأش ؟ إن الدموع لا تكون إلا فى حالة الاضطراب وجيشان العاطفة ، أما احمرارها وصفاؤها فيكونان على درجتين من درجات الاضطراب ؛ على أن الصفاء لا يقابل الاحمرار ولا يقاسمه ، فقد يكون الأحمر صافياً والصافى أحمر

أنت شاعر

وهذا شاعر يئن من هجر حبيبته ، وهو الأستاذ محمد عزيز رفعت ، والقصيدة كلها مبنية من الكلمات والعبارات المبتذلة التى كثر استعمالها فى الشكوى من فعل الجوى وتبريح الصبابة ، يقول :

أشكو هوى بين الجوانح شفنى ... فى هجعتى سقماً وفى يقظاتى

وتظهر فى بعض أجزائها محاولة الاجادة ، وتبدو فى قليل من أبياتها مخايل الشعر كقوله :

عبثاً شكوت فيا لصب مغرم ... لم يجن غير اليأس من ثمرات
« واليأس إحدى الراحتين » لو اننى
لما يئست ذهلت عن صبواتى

وفى القصيدة ركاكة فى الأسلوب ، وتكلف فى النظم ، وأخطاء فى بعض المعانى والألفاظ ؛ قال :

واسود وجه الرأى لا لى حيلة ... لنوال عطفك أو لكبت وشاة

النوال : العطاء ، وهو يريد النيل مصدر نال ينال ، فاستعمال النوال هنا خطأ .

وركاكة البيتين الآتيين لا تحتاج الى بيان ، قال :

وصددت عنى حين أنت مدينة ... بالعهد عهد سرائر المهجات
وقطعت لا ارسل اليك شفيعة ... لى فى رضاك ولاصدى هتفاتى

وما معنى قوله : « ولا صدى هتفاتى » ! أيعنى أن صدى الهتفات لم يشفع فى رضاها ؛ وكيف يشفع الصدى ؟ !

ويقول :

والله واليوم الأخير ووقفة ... لله أنذرها على عرفات
لو كنت فى نزع المنون مخيراً ... ما بين قربك لحظة وحياتى

لاخترت قربك والمنون ولم أشأ نعمى الحياة على سرير مماتى
ولو استبنت الدمع يوم منيتى فى مقلتيك سعى اليك رفاتى

فلماذا كل تلك الأيمان المغلظة ؟ وما معنى هذا النذر ؟ أيعنى أنه ان اختار الحياة على قربها مع الموت يلزمه أن يقف على عرفات ! ثم كيف يستبين الدمع فى مقلتيها وهو ميت ؟ !

ميتة سكير

قصيدة الأستاذ محمود رمزى نظيم ، وهى قصيدة عذبة رقيقة ، تنساب فيها روح خفيفة ساحرة ، وأسلوبها من السهل الممتنع ، وإليك الدليل ، وما من شيء يبلغ فى التدليل على جمالها مبلغها هى فى ذلك ؛ قال فى مطلعها :

سقطت أسنانه فى الـ ـكأس سنًا جرَّ سنا
وأراق الخمر فى هيـ ـكله دنا فدنا
جن بالكأس وهل يذ هب الذى بالكأس جنا
يحسب الناس الألى لا يشربون الخمر جنا
تخذ الحانة دارا واحتساء الراح فنا
عاش للراح حبيبا واجف القلب معنى
لو تمنيه بغير الـ ـكأس شيئاً ما تمنى
إن مشى تحسبه فى سكره غصناً تثنى
وشمالاً ويميناً مال تيهاً وارجحنا
ما صحا من سكره إلا إلى الحانة حنا

فهذا كلام تتراقص فيه الروح الشعرية تراقص الحباب فى الكأس . ونأخذ من بين هذه الأبيات قوله :

يحسب الناس الألى لا يشربون الخمر جنا

فما الصلة بين الذين لا يشربون الخمر وبين الجن حتى يحسبهم السكير كذلك ؟ اللهم إلا أن يكون قد ضعف تصوره من شدة السكر ..

والأستاذ رمزى نظيم شاعر متفنن ، وتراه فى هذه القصيدة يفتن فى الانتقال من صورة إلى صورة فى حذق ومهارة ؛ فهو بعد أن يصف السكير ينتقل إلى التعبير عن خواطره فيقول :

طالما أوحى إلى النصا ح ردوا النصح عنا
إن من يترك شرب الـ ـراح عمداً ليس منا
إن فى الحانة للخا ئف تشجيعاً وأمنا
نحن للكأس خلقنا وبها فى الكون عشنا

إلى أن أتى على مصرعه فقال :

أشبه الوهم فما يسـ ـمع ان ناح وأنا
وقضى بالأمس لم تحـ ـزن عليه الناس ضنا

وكنا نحب أن يتفادى الشاعر السناد(١) الذى وقع فى قوله :

ورق الكرم أكف تحمل الكأس إلينا

الشباب والزواج

قصيدة السيدة منيرة توفيق . وهى الشاعرة المصرية البارزة الوحيدة فى هذا العصر ، إذ أن مصر تكاد الآن تكون مقفرة من الشواعر ؛ والمرأة المصرية تستمد صمتها من أبى الهول ، ولا أعنى إلا الامساك عن التعبير عن الاحساس والعواطف تعبيراً صادقاً ؛ فمن شعرت من بنات مصر فانما تقول فى الأخلاق والنصائح ، متجاوزة خوالج النفس ودقائق الحس ، لأن طبعها الصموت الحيي يأبى الحديث عنها . وأعتقد أنها لو فعلت ، وكانت موهوبة التعبير والأداء ، لأتت بالغرائب

وهذه السيدة الفضلى توجه القول إلى الشباب ، محذرة إياهم من الزواج بالأجنبيات ، ناصحة لهم أن يقبلوا على الزواج من بنات وطنهم فتقول :

وتزوجوا من عرضكم تبقوا على العرض السليم
ودعوا زواج الأجنبيـ ـة فهو شر مستديم
عجباً ! أللدور احتلا ل آخر فيها يقيم ؟

والقصيدة وان كانت معنونة بـ(الشباب والزواج) إلا أنها مقصورة على التحذير من الزواج بالأجنبيات ، فلا تعرض لأعراض الشبان عن الزواج إلا بهذين البيتين :

فدعوا الغواية إنها باب يؤدى للجحيم
وخذوا الزواج فانه باب السعادة والنعيم

وقد أحسنت فى قولها :

لا يخدعنكمو جمال الـ أجنبيات الوسيم
كلا ولا سحر الكلا م ورقة الصوت الرخيم
هـذا لعمرى مظهر والله بالخافى عليم

وإن كان فيه ظلم لفتياتنا ، فهن فى هذه الصفات مجليات على ما أرى ، والله أعلم .

عباس حسان خضر

(١) السناد : عيب من عيوب القوافى ، وما هنا نوع من أنواعه ، وهو أن يدخل الشاعر حرف اللين قبل الروى ثم يدعه

أندلسيات

أبو بكر بن العــــربى

للأستاذ عبد الرحمن البرقوقى

أسلفنا أن المترجم له قدم الأندلس من رحلته بعلم كثير، واتخذ بلده أشبيلية مقاما له، وأخذ يذيع علمه، وجلس للوعظ والتفسير والافادة، ورُحِل اليه للسماع، وصنف فى غير فن تصانيف كثيرة حسنة ضخمة، حتى يروى أنه ألف أربعين مؤلفا فى موضوعات شتى فُقِد معظمها، ذكروا منها كتاب العواصم والقواصم، والمحصول فى أصول الفقه، وكتاب المسالك فى شرح موطأ الامام مالك، وكتاب الناسخ والمنسوخ، وكتاب أنوار الفجر فى تفسير القرآن، قالوا إنه ثمانون ألف ورقة فى ثمانين مجلدا، وكتاب عارضة الأحوذى[1] على كتاب الترمذى الخ ولمناسبة كتابه أنوار الفجر فى التفسير نورد كلمة له قالها عند تفسير قوله تعالى: «إنفِروا خِفَافا وثِقَالاً»، تدل على أنه كان إماما طليقا واسع آفاق الفكر عصريا كما نعبر اليوم . . . وهى هذه: «ولقد نزل بنا العدو — الاسبانيون — قصمه الله سنة ٥٢٧، فجاس ديارنا وأسر جيرتنا، وتوسط بلادنا فى عدد حدّد الناس عدده، وكان كثيرا وإن لم يبلغ ما حددوه، فقلت للوالى والمولى عليه: هذا عدو الله قد حصل فى الشرك والشبكة، فلتكن عندكم بركة، ولتكن منكم إلى نصرة الدين المتعينة عليكم حركة، فليخرج اليه جميع الناس حتى لا يبقى منهم أحد فى جميع الأقطار فيحاط بهم فانه هالك لا محالة ان يسركم الله له، فغلبت الذنوب، ورجفت بالمعاصى القلوب، وصار كل أحد من الناس ثعلبا يأوى إلى وجاره، وإن رأى المكيدة بجاره، فانا لله وانا اليه راجعون، وحسبنا الله ونعم الوكيل . . » وقد أسند إلى المترجم له قضاء بلده. قال تلميذه القاضى عياض: فنفع الله به أهلها لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه، وكانت له فى الظالمين سورة مرهوبة، وتؤثر عنه فى قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه ...

تلاميذه

وقد تتلمذ للمترجم له عدة ممن تخرجوا عليه وكان لهم شأن يذكر، فمنهم القاضى عياض صاحب الشفاء، وسنترجم له إن شاء الله — ومنهم الامام الحافظ ابن بشكوال صاحب كتاب الصلة وخلافه، ومنهم الامام السهيلى صاحب كتاب الروض الأُنف فى شرح سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من التواليف، وصاحب هذه الأبيات المشهورة التى أنشدها للامام الحافظ أبى الخطاب بن دحية وقال له: ما سأل الله تعالى بها حاجة إلا أعطاه إياها، وكذلك من استعمل إنشادها، وهن:

يامن يرى مافى الضمير ويسمع	أنت المُعَدُّ لكل ما يتوقع
يامن يُرَجى فى الشدائد كلها	يا من اليه المُشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه فى قول كن	أُمْنُنْ فان الخير عندك أجمع
مالى سوى فقرى اليك وسيلة	فبالافتقار اليك فقرىَ أمنع
مالى سوى قرعى لبابك حيلة	فلئن رُددتُ فأى باب أقرع
ومن الذى أدعو وأهتف باسمه	ان كان خيرك عن فقيرك يمنع
حاشا لمجدك ان تقنط عاصياً	الفضل أجزل والمواهب أوسع

أقوال مؤرخى الأندلس فيه

واليك نتفاً مقتطفة مما قاله فى حق المترجم له مؤرخو الأندلس ممن عاصره وتتلمذ له. قال الحافظ بن بشكوال فى كتابه الصلة: هو الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها .. كان من أهل التفنن فى العلوم والاستبحار فيها والجمع لها مقدماً فى المعارف كلها، متكلما فى أنواعها، نافذاً فى جميعها، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب منها، يجمع الى ذلك كله آداب الأخلاق مع حسن المعاشرة ولين الكنف وكثرة الاحتمال وكرم النفس وحسن العهد وثبات الود الخ الخ وقال أبو نصر الفتح بن خاقان صاحب المطمح والقلائد:

الفقيه الحافظ أبو بكر بن العربى علم الأعلام الطاهر الأثواب، الباهر الألباب الذى أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا فى بدء الاسلام أمضى من النصل،

(١) العارضة القدرة على الكلام، يقال فلان شديد العارضة إذا كان ذا قدرة على الكلام، والأحوذى الخفيف فى الشىء لحذقه

سقى الله به الأندلس بعد ما أجدبت من المعارف ؛ ومد عليها منه الظل الوارف ، وكساها رونق نبله ، وسقاها ريق وبله . وكان أبو محمد باشبيلية بدرا فى فلكها ، وصدرا فى مجلس ملكها ، واصطفاه معتمد بنى عباس اصطفاء المأمون لابن أبى دؤاد ، وولاه الولايات الشريفة ، وبوأه المراتب المنيفة ؛ فلما أقفرت حمص (يريد أشبيلية) من ملكهم وخلت ، وألقتهم منها وتخلت ، رحل به إلى المشرق ، وحل فيه محل الخائف الفرق ، فجال فى أكنافه ، وأجال فيها قداح الرجاء فى استقبال العز واستئنافه ، فلم يسترد ذاهباً ، ولم يجد كمعتمده باذلاً له وواهباً ، فعاد إلى الرواية والسماع ، وأبو بكر إذ ذاك فى ثرى الذكاء قضيب ما دوح ، وفى روض الشباب زهر ما صوح ، فألزمه مجالس العلم رائحاً وغادياً ، ولازمه سائقاً اليه وحادياً ، حتى استقرت به مجالسه ، واطردت له مقايسه ، فجد فى طلبه ، واستجد به أبوه متمزق أربه ، ثم أدركه حمامه ، ووارته هناك رجامه ، وبقى أبو بكر منفرداً ، وللطلب متجرداً ، حتى أصبح فى العلم وحيداً ، ولم تجد عنه رياسته محيداً ، فكر إلى الأندلس فحلها والنفوس إليه متطلعة ، ولأنبائه متسمعة ، فناهيك من حظوة لقى ، ومن عزة سقى ، ومن رفعة سما اليها ورقى ، وحسبك من مفاخر قلدها ، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلدها ، الخ الخ .. وقد وصفه القاضى عياض بما أوردنا بعضه عن حاله فى القضاء ، وفى هذا القدر غناء . .

مقتطفات من منظومه ومنثوره

وأظنك لا تجهل أن أكثر علماء الأندلس وفلاسفتها وسائر مثقفيها يقرضون الشعر ، وقل أن تظفر بأندلسى لا يقول الشعر ، ومن ثم لا تستغرب أن يكون مثل القاضى أبى بكر بن العربى شاعراً وشاعراً ظريفاً ... فمن شعره وقد ركب مع أحد الأمراء الملثمين ، وكان ذلك الأمير صغيراً ، فهز عليه رمحاً كان فى يده مداعبا ، فقال :

يهز على الرمح ظبى مهفهف   لعوب بألباب البرية عابث
ولو كان رمحاً واحداً لاتقيته   ولكنه رمح وثان وثالث

ولعل الرمح الثانى والثالث القد واللحظ .. ومن بديع شعره :

أتتنى تؤنبنى بالبكا   فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفى نفسها حسرة   أتبكى بعين ترانى بها
فقلت إذا استحسنت غيركم   أمرت جفونى بتعذيبها

وحكى رحمه الله قال : دخل على الأديب بن صارة — وهذا ابن سارة أو صارة شاعر فحل من شعراء الأندلس — وبين يدى نار عليها رماد ، فقلت له : قل فى هذه ، فقال :

شابت نواصى النار بعد سوادها   وتسترت عنا بثوب رماد

ثم قال لى أجز ، فقلت :

شابت كما شبنا وزال شبابنا   فكأنما كنا على ميعاد

ويروى أنه كتب كتاباً فأشار عليه أحد من حضر أن يذر عليه نشارة ، فقال قف ، ثم فكر ساعة ، وقال اكتب :

لا تشنه بما تذر عليه   فكفاه هبوب هذا الهواء
فكأن الذى تذر عليه   جدرى بوجنة حسناء

ومن شعره :

ليت شعرى هل دروا   أى قلب ملكوا
وفؤادى لو درى   أى شعب سلكوا
أتراهم سلموا   أو تراهم هلكوا
حار أرباب الهوى   فى الهوى وارتبكوا

وشعر هذا القاضى الجليل كثير جميل يدل على صفاء نفس وحس مرهف وقريحة خصبة مواتية . ونكتفى بهذا القدر ونوردهنا بعض فوائد هن فرائد لهذا الامام العظيم ذكرها فى رحلته وغيرها وأوردها المقرى . فمن هذه الفرائد قوله : سمعت الشيخ فخر الاسلام أبا بكر الشاشى ، وهو ينتصر لمذهب أبى حنيفة فى مجلس النظر يقول : يقال فى اللغة العربية لا تَقْرَبْ كذا بفتح الراء ، أى لا تلتبس بالفعل . وإذا كان بضم الراء كان معناه لا تدن من الموضع . . وهذا الذى قاله صحيح مسموع ... ومنها ما نقله عن ابن عباس رضى الله عنه : لا يقل أحدكم انصرفنا من الصلاة فان قوما قيل فيهم ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ؛ وقد أخبرنا محمد بن عبد الملك القيسى الواعظ ، أخبرنا أبو الفضل الجوهرى سماعا منه : كنا فى جنازة فقال المنذر بها : انصرفوا رحمكم الله . فقال : لا يقل أحدكم انصرفوا ، فان الله قال فى قوم ذمهم ، ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم ، ولكن قولوا انقلبوا رحمكم الله فان الله تعالى قال فى قوم مدحهم : فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء ... ومنها قوله فى تصريف المحصنات : يقال أحصن الرجل فهو مُحصَن بفتح الصاد فى اسم الفاعل وأسهب فى الكلام فهو مسهَب — بفتح الهاء — إذا أطال البحث فيه وألفج

فهو مُمْفَج إذا كان معدما — فقيراً — فهذه الثلاثة جاءت بالفتح نوادر لا رابع لهـا . . ومنها قوله : سمعت إمام الحنابلة بمدينة السلام — بغداد — أبا الوفاء على بن عقيل يقول : إنمـا تبع الولد الأم فى المالية وصار بحكمها فى الرق والعبودية لأنه انفصل عن الأب نطفة لا قيمة له ولا مالية فيه ولا منفعة مبثوثة عليه ، وإنما اكتسب ما اكتسب بها ومنها فلذلك تبعها ، كما لو أكل رجل تمراً فى أرض رجل وسقطت منه نواة فى الأرض من يد الآكل فصارت نخلة فانها ملك صاحب الأرض دون الآكل باجماع من الأمة لأنها انفصلت عن الآكل ولا قيمة لها ، وهذا من البدائع .. ومنها قوله : كان بمدينة السلام إمام من الصوفية وأىّ إمام يعرف بابن عطاء ، فتكلم يوما على يوسف وأخباره حتى ذكر تبرئته مما ينسب إليـه من مكروه ، فقام رجل من آخر مجلسه وهو مشحون بالخليقـة من كل طائفة ، فقال : يا شيخ ، ياسيدنا ، إذن يوسف همّ وما تمّ ، فقال : نعم لأن العناية من ثم . . . فانظروا إلى حلاوة العالم والمتعلم ، وفطنة العامى فى سؤاله ، والعالم فى اختصاره واستيفائه ، ولذا قال علماؤنا الصوفية إن فائدة قوله تعالى : ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً أن الله أعطاه العلم والحكمة أيام غلبة الشهوة ليكون له سبباً للعصمة ... ومنها قوله : تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا أبى بكر الفهرى الطرطوشى حديث أبى ثعلبة المرفوع : إن من ورائكم أياماً للعامل فيها أجر خمسين منكم . فقال : بل منهم . فقال : بل منكم ، لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً ... وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتى من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم أسسوا الاسلام ، وعضدوا الدين ، وأقاموا المنار ، وافتتحوا الأمصار ، وحموا البيضة ، ومهدوا الملة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم فى الصحيح : لو أنفق أحدكم كل يوم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه . . فتراجعنا القول وتحصل ما أوضحناه فى شرح الصحيح ، وخلاصته : أن الصحابة رضى الله عنهم كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر ، وأعمال سواها من فروع الدين يساويهم فيها فى الأجر من أخلص إخلاصهم ، وخلصها من شوائب البدع والرياء بعدهم ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والاسلام ، وهو أيضاً انتهاؤه . وقد كان قليلاً فى ابتداء الاسلام صعب المرام لغلبة الكفار على الحق ، وفى آخر الزمان يعود كذلك لوعد الصادق صلى الله عليه وسلم بفساد الزمان وظهور الفتن وغلبة الباطل ، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق ، وركوب من يأتى سنن من مضى من أهل الكتاب كما قال صلى الله عليه وسلم : لتركبنّ سنن من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب خرب لدخلتموه ...

وقال صلى الله عليـه وسلم : بدا الاسلام غريبا ، وسيعود غريباً كما بدا ... فلا بد والله أعلم بحكم هـذا الوعد الصادق من أن يرجع الاسلام إلى واحد كما بدأ من واحد ، ويضعف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف وباع نفسه من الله تعالى فى الدعاء اليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكنا منه معاناً عليه بكثرة الدعاة إلى الله تعالى ، وذلك قوله : لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعوانا حتى ينقطع ذلك انقطاعا بأنا لضعف اليقين وقلة الدين ، كما قال صلى الله عليه وسلم : لا تقوم الساعة حتى لا يقال فى الأرض : الله الله . . يروى بفتح الهاء ورفعها ، والرفع على معنى لا يبقى موحد يذكر الله عز وجل ، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناه عن منكر يقول أخاف الله ، وحينئذ يتمنى العاقل الموت كما قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : يا ليتنى كنت مكانه ....

« وأما بعد » ، فهذا هو تاريخ القاضى أبى بكر بن العربى ، سردناه لك فى أخصر قول وأجزأ اختصار ؛ وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق . ومن هذه الترجمة تتبين منزلة هذا الامام والمكان الذى يشغله بين علماء الاسلام ، وأنه كان إلى تفقهه فى الدين كأكثر السلف الصالح أديبا كاتبا شاعراً فصيحا كثير الملح مليح المجلس وهكذا كان أكثر علماء الأندلس

وقد كانت وفاة هذا الامام سنة ٥٤٣ . وقال القاضى عياض : وتوفى منصرفه من مراكش من الوجهة التى توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول الموحدين مدينة اشبيلية ، فحبسوا بمراكش نحو عام ثم سرحوا ، فأدركته منيته ودفن بفاس وقبره هنالك مقصود رحمة الله عليه .

عبد الرحمن البرقوقى
رئيس قلم المراجعة بمجلس النواب

السيرة النبوية
وكيف يجب أن تكتب

للأستاذ ابراهيم الواعظ

كنت كلما ظهر كتاب حديث عليه اسم « محمد » (ص) أسارع لاقتنائه ؛ ذلك لأنني كنت ولا أزال في رغبة شديدة أن أسمع عن الرسول العربي العظيم ، وعن سيرة النبي الكريم شيئاً جديداً . والعامل الوحيد الذي أوجد في هـذا الشعور ، وحرّك فيّ ذلك الاحساس ، هو الاطراد الموجود في السير المكتوبة اطراداً يكاد أن يكون نسخةً مطابقة لأصل واحد ، ومجررة على غرار واحد

انني لم أرسل كلمتي هـذه منتقداً بها ما دونه الأقدمون في السيرة ، وصاحب السيرة ، كلا ، وإنما أردت أن أقول للذين تناولوا السيرة وصاحب السيرة ، بأن الواجب كان يقضي عليكم أن تأتوا للناس بحديث جديد عن محمد (ص) بحديث يصور للناس محمداً كما هو لا كما أراده كتاب السير

طلعت علينا في الآونة الأخيرة عدة كتب كتبت مؤخراً لتحليل شخصية محمد (ص) ، وما انطوت عليه نفسه من العظة والعبقرية ، فمنهم من أصاب المرمى ومنهم من قارب ؛ فذهب الأستاذ جاد المولى في كتابه « محمد المثل الكامل » إلى ناحية لم يتطرق إليها الأستاذ محمد رضا في كتابه « محمد » ؛ وإن هذين الأثرين من حيث الترتيب والتنسيق جديدان ، ولكنهما من حيث المادة لا يزيدان ولا ينقصان عن السير القديمة . على أن هناك أستاذاً كبيراً يكاد أن يكون فرداً فذاً في تأليفه هو « مولانا شبلي النعماني » فان هـذا العالم الكبير أراد أن يستخرج من السير الموضوعة سيرة مستندة إلى أرجح الأقوال وأصح الروايات ، ويبرز الرسول الأمين للناس صورة حقيقية كما هي ، فألف كتابه الذي أسماه « تاريخ الاسلام » والذي أفرد منه أربعة مجلدات في السيرة المحمدية . هذا ولا أريد أن أرسل الكلام في وصف هـذا الكتاب جزافاً ، ولا أريد أن أخرج بالقارئ عن الموضوع والصدد ، وإنما قصدي أن أحث كل من يريد أن يتعرف محمداً « ص » كما هو أن يطلع على هذا الكتاب الذي أوضح شخصية محمد « ص » إيضاحاً ، وحلل نفسيته الزكية تحليلاً عجز عنه المتقدمون من كتاب السير والمتأخرون منهم

وقد جرى على غرار هذا المؤلف الأستاذ الكبير محمد حسين هيكل بك فانه كان قد كتب فصولاً في السياسة الأسبوعية جمعها في كتاب أخرجه للناس ، كتاباً رد به طعن الطاعنين ودحض به زعم الزاعمين ؛ وكأني بالأستاذ وقد كتب مؤلفه هذا لمن لا يؤمن بنبوة محمد مباشرة متوخياً في عمله ذلك الدعاية والتبشير لا نقل ما هو مكتوب في كتب السير من حادثات ووقائع

وإنني لا أتفق ومنتقدي كتاب الأستاذ هيكل من أنه أغفل كثيراً من الأمور المهمة في السيرة بأنه أنكر المعجزات . والتطرق لهذا الموضوع يحتاج إلى إفراد بحث بكامله لهذا فليس من الأصول أن أقول كلمة في ذلك سوى أنني أكتفي بالاشارة إلى ما أورده الأستاذ هيكل في الطبعة الثانية من كتابه وأضيف إلى ذلك تعريف الكتاب لجمهور القراء من الشيخ محمد مصطفى المراغي العلامة الأكبر ، فان هذا التعريف لكتاب مثل هذا الكتاب له أهميته العلمية

هذا وقد سكتت الأقلام وجفت الصحف كأن « حياة محمد » التي دبجتها يراعة هيكل كانت خاتمة ما يكتب في هذا الموضوع ، ولكن سرعان ما أتحفنا الأستاذ « الحكيم » بكتابه (محمد) (ص) فقد تفنن في أسلوبه الجديد ، وجدد في طريقته الفنية ، ولكنه لم يزد ولم ينقص عما ورد في كتب السير ، فلم نكبر له الموضوع وإنما أكبرنا له الأسلوب

ثم كان بعد ذلك أن خرجت علينا الرسالة في عددها (١٤٨) بمقال تحت عنوان « رسالة الأزهر في القرن العشرين » بتوقيع الأستاذ لبيب الرياشي المسيحي وبها دعا الكاتب إلى أن تكون رسالة الأزهر في القرن العشرين المسيحي ، والقرن الرابع عشر المحمدي ، دورته الأولى لرسالة الأزهر في هذا القرن كالقرن

الأول المحمدى فيقابل الدور الأول دور التحنث والتعبد ، دور تحقيق ودراسة من ينتخبهم الأزهر من عشاق التضحية ، وعشاق الحق من طلابه ، فيثقفون ثقافة عالية ، ويتملمون تعلما سامياً ، فيتخصص كل فريق ممن وقع عليهم الاختيار بنتيجة الفحص والاختبار باللغات الحية وبكل فرع من فروع العلوم العالمية العالية ، علاوة على ما أتقنوه من علوم القرآن والدين والشريعة والسنة والسيرة واللغة العربية ؛ وبعد هذا فرسالة الأزهر أن تكتب سيرة محمد (ص) بصورة تتفق وما جاء في القرآن الحكيم وعقلية الرسول البريئة وأعماله الحق .

وقد ضرب الأستاذ فى مقاله أمثلة مهمة خطيرة حذر الأزهر من أن يقع فى مثل ما وقع فيه غير واحد من متخرجيه

وإذا بهذا الأستاذ قبل أن كتب مقاله هذا فى الرسالة أخرج لنا كتاباً من قلم مسيحى يحلل نفسية محمد بن عبد الله (ص) ، تحليلا فلسفياً ، ويطرح كتابه هذا أطروحة — كمثل أعلى — لمن يريد أن يكتب السيرة . سيرة الرسول الأعظم (ص)

لقد نحا الأستاذ الرياشى ناحية فى كتابة السيرة لم ينحها قبله ولا بعده أحد من كتاب السيرة ؛ ولقد أظهر للملأ جديداً فى حياة محمد بن عبد الله ووجد ضالته حين كان ينقب عن (السبرمن) ، فوجده محمداً فى شخصية الرسول الكريم قبل أربعة عشر قرناً

وقد أبدع الأستاذ الكبير الشيخ عبد القادر المغربى فى تعريف الكتاب بمقدمته المحمدية ، كما أحسن الأديب أمين نخلة فى تقديم الكتاب بمقدمته المسيحية

وبعد ، فانى قد وجدت ضالتى المنشودة فى كتاب الرياشى ، وفى مقدمتيه المحمدية والمسيحية ، فأدعو الأزهر ورجال الأزهر كما دعاهم الأستاذ الرياشى أن يكونوا جماعة تكتب حياة محمد وسيرة محمد كما كتبها الرياشى

فعلى هذا النسق ، وعلى ذلك الأسلوب ، وعلى تلك الطريقة ، يجب أن تكتب السيرة النبوية

(بغداد) ابراهيم الواعظ
المحامى

الواحة المجهولة

للأستاذ فخرى أبو السعود

مأنوسةُ الأفياء والأكناف ... موصولة الحسنات بالألطاف
عبق الشذا فيها وأصبح دوحها ... نُصُباً لكل مباكر وكاف
وتألقت أزهارها وتمايلت ... أغصانها منضورة الألفاف
وتتابعت فيها الثمار شهية ... فتانة الألوان والأوصاف
وجرى النمير بها ألَذّ مذاقة ... للوارديه من رحيق سلاف
أنى تصرّف مقلة لك تكتحل ... بجداول رقراقة وضُفاف
ما تنتهى من فتنة إلا إلى ... أخرى ومن صوَر إلى أطياف
وتشابهت فيها الفصول فحسنُها ... سيان فى مشتى وفى مصطاف
يا حُسنها من واحة لو أنها ... أهلَتْ وفاز بها الفتى بمطاف
لكنها مجهولة ممنوعة ... من دونها حَزن وقفر نيافى
هيهات ما تُنبى صحائفُ عالم ... عنها ولا تَهدى رُؤَى عرّاف
لم يدرِ غيرى سرّها فأنا الذى ... فى أضلُعى حُمِّلْتها وشغافى
هى قلبىَ النائى الذى من دونه ... غُم الطريق على الحبيب الوافى
ولو اهتدى يوماً لباءَ إلى حمى ... خصبٍ وفاءَ إلى ظليل ضاف
ولقد أبحتُ صحابةً لىَ حقبةً ... أفياءَ تلك الروضة المئناف
فتمردوا فى ظلها من بعد ما ... نعموا بأثمار بها ونطاف
فقبضتُها عنهم وصنت جنانها ... عن كل جاس فى القلوب وجاف
فهى الغداةَ تميس فى فتناتها ... والكون أجمع عن حُلاها غاف
نضرت أزاهرها ولا مَنْ يجتلى ... وزكَتْ دواليها لغير قطاف
وانساب سلسلها وما من راشف ... وذكت نسائمها للامُستاف
هى جنة الود الخلى من القذى ... جمعت أفانينَ الوداد الصافى
تندى وتألق فى الأزاهر والسنى ... فى مهمه وعر المسالك خاف
وغداً سيذوى حسنها ورواؤها ... ويجف منها يانع الأفواف
لم يفتقد منها المحاسنَ فاقدٌ ... أو يبكها بالمدمع الذراف
وتغولها تلك القفار ويثنى ... يذرُو معالمها الترابُ السافى

فخرى أبو السعود

البحر

للأستاذ عبد الرحمن شكرى

ألا ليتنى لج كلجك زاخر
أعبُّ كما تهوى النهى والبصائر(١)

فكم عبث النفس اللَّجوج وحاولت
كبعض سطاك الآبيات النوافر(٢)

وأخفت من الدر النفوسُ ومن حُلَى
كما اختبأت فيك اللهى والذخائر

كأن بها أفقاً كأفقك نائياً ... ومن دونه كل المَدَى يتقاصر
أتطرب من لحن الخرير كأنه ... خواطر تتلوها عليك السرائر
كما طرب النشوان من لحن صوته ... لجاشت لديك الراقصات الزواخر
وإلا فما للموج فى اليمِّ راقصاً ... دعاه عذارى البحر شادٍ وشاعر(٣)
خريرك يحكى صدحة الدهر صامتاً ... كأنك دهر بالحوادث مائر(٤)
هو الدهر لا يخشى المنايا ولا يَهِى ... صِبَاه ولا تقضى عليه المقادر
وأنت شبيه الدهر لا أنت هارم ... ولا أنت منقوص ولا أنت خاسر

ويصطخب الآذىُّ فيك كأنما اصـ
ـطخابك من حكم المنية ساخر(٥)

أخَفْقٌ وإعصار ودفع وهبَّة ... كأنك حىٌّ نابض القلب شاعر
فريحك أنفاس وموجك نابض ... كنبض قلوب أعجلته البوادر
خلوتَ من السُّمَّار كالبيد وامَّحت ... معالم لا تُبْقِى عليها الأعاصر

سوى شِلْو فُلْك قد حدرت إلى الردى
يلوح كما لاحت رسوم غوائر

وكم جُزُر مثل الجِنان مضيئة ... كأنْ جهلتها الصائلات الدوائر

لَخيلتْ نجومَ السعد والحب والمنى
تحِنُّ إليها الشَّحشحان المُخاطر(٦)

كما حنَّ للآل الخلوب قوافل ... تَخُبُّ بها فى البيد إبلٌ ضوامر(١)
تخلَّفتَ فى قلب المخاطِر همة ... على الدهر لا تبلى وتبلى العمائر
يحن إلى ما خلف أُفْقِكَ ناظر ... كما تنشد الغيبَ النهى والبصائر
كأن مُنًى للنفس من خلف أفقه ... تلوح كما لاح السراب المبادر
أو أن مجال السعد دُرٌّ مُنظَّمٌ ... على الأفق ينحوه الطالب المغامر
بلى كل نفس للغريب مشوقة ... وإن خوَّفتها من سطاه المحاذر
ويصغر فى مرآك عيش ابن يومه ... ويكْبُرُ رأىٌ ذاهب فيك سائر
خواطر مثل الفلك فيك شوارد ... يضل عليها عازب اللب حائر
تناءت بك الأمواج وهى نوافر ... وجاءت بك الأمواج وهى ثوائر
كأن بها عجز المشيب إذا انثنت ... وعزم الشباب الغر وهى بوادر

فنم نومة الظل البطىء مسيره
وثِبْ وثبة الغضبان حين يُساور(٢)

فيا رُبَّ حلم خامل البطش هادىء
ضمنت وجهل شره متطاير

كأن لنا من لج مائك واعظاً ... بليغاً له مما أثرت زواجر
رأيتك والأمواج فى وثباتها ... عساكر حرب قد تلتها عساكر
فبينا يريق الضوء فوقك ماءه ... وتجرى عليك الريح وهى خواطر
ويتلو عليك الصائدون غناءهم ... يرجِّعه لحن من الماء مائر
ويُسمِعك الملاح من شجو قلبه ... أحاديث قد تاقت لهن الحرائر
إذ الجو جهم والرياح كتائب ... وإذ أنت مقبوح السريرة غادر
ورب سفين يقرع النجمَ مجدُها ... تقاذفها مستوفز اللج هامر
يُرَوِّعها فى كل هوجاء مُوعِدٌ ... ويسعى لها قبر من الماء سائر
وما ذلك اللج الذى فى سمائها ... بأهدأ من لج نمته الزواخر
إذا ذكر المَلاح زوجاً وصبية ... طغى شجن فى مِرجَلِ الصدر فائر
وتذهل عن مهد الوليد رءومه ... إذا ما رمتها بالوعيد الزماجر
وما هى إلا صولة ثُمّتَ انجلت ... وأكبر غرقاها المساعى البوائر
كما غرقت فى لجة الدهر دولة ... زهت ما زهت والدهر للناس غامر

عبد الرحمن شكرى

(١) أى لج من الحياة والنهى (٢) أى النفوس الآبيات
(٣) عذارى البحر إشارة إلى الأسطورة الإغريقية
(٤) مائر أى مائج (٥) الآذى: الموج
(٦) الشحشحان: القوى الشجاع

(١) الخبب العدو
(٢) نومة الظل سكونه الذى يشبه به سكون البحر كما تشبه سورته بسورة الغضبان

فجر المصايف المصرية :

رأس البر . . . !

للأستاذ محمد يوسف المحجوب

مَهْدَ الهدوءِ وفُرْضة الأحباب ... ها قد لقيتكَ بعد طول غياب
أقبلت نحوك ظامئاً ، أُلقى لدى ... عطفيكَ أعبائى ، وأنفض مابى
قد هدَّ سعىُ العام أوْصالى بما ... عانيتُ من درسٍ ومن أوصاب
فاذا أتيت فحسب قلبى أننى ... لاقٍ بظلك منتهى آرابى . . . !

***

داويْتُ بالصحو الجميـــل متاعبى
ورأيت فيك الشمسَ دون حجاب
وظفرتُ عندك بالسُّكون يلفُّنى ... ويريح من ذهنى ومن أعصابى
وغمرتُ روحى قبل جسمى بالمُنى ... لما استنمت لِموجك الصخاب
غطَّى على صخب الحياة ولفَّهُ ... فمضى وضاع بلُجِّه المُنساب
لا الفكرُ عندك سابح فى مؤلم ... حاشا ولا الوجدان عندك خابى !

***

أصحو مع الصبح الجميل ، فتنتشى ... روحى بشمسٍ أشرقت وعباب
شمس أراها ، لا يصدُّ شعاعها ... عنا رُبًى ، أوْ ناطحات سحاب
وأرى الخضمَّ ولا شعاب تحدُّه ... فى ناظرى . . . فتضلُّ فيه شعابى
وأرى ظباء الأنس حول كِناسها ... يطفِرْن فى مرَحٍ ووقدِ شباب . .
ترنو إليهن العيونُ ، وترتمى ... حسناً يزلزلُ راسىَ الألباب !
يُقبلْنَ فى ساعِ الأصيل ترائباً ... تختال بينَ مُفَوَّف الأثواب
وَيسِرْنَ أسْرَاباً ، يمايلُ عِطفَها ... فَرْطُ الصِّبا، ويعُدْنَ فى أسراب !
لا يســـتطيع الصبُّ تكلماً ، ولا
يقْوَى على شئ . . . سوى الإعجاب !
يَرْنو إلى ذاك الجمالِ كأنما ... يرْنو إلى المعبود فى محرابِ . . !

***

جَوٌّ عليه من العَفاف رقابةٌ ... صانته عن عبثٍ يُرادُ وعاب
جَوٌّ يضُمُّ كرائماً وحَرائراً ... باتَ الحياءُ لهُنَّ خيرَ نِقابِ
وشبيبةٌ لا يرتضون من الهوَى ... دَنَسًا يَشينُهُمُ على الأحقاب
الكلُّ فيه « أُسْرَةٌ » قد زانَها ... أنْ ليسَ فيها سَيِّئُو الآداب . . !
سَهِروا على الأخلاق واعتصموا بهـا
وَرَعَى الحُضُـورُ أمانَةَ الغُيَّابِ
هــذا هو العَيْشُ النبيل ، وهكذا
يَسْمُو « المَصيفُ » بإخوةٍ وَصِحابِ . .

***

. . . لا ما تَراه من الغَوَاية والخَنَا
فى « الرَّمْلِ » من هَمَلٍ وَمِنْ أوْشَابِ !
سَلْ شاطِئَ « اسْتانْلى » وسل أترابه
كم قد برِمْنَ بفاسدى الآداب . . . ؟
ظنُّوا الحياةَ مجانةً وخلاعةً ... فطوَوْا من الأخلاق خيرَ كتابِ
ورَأَوْا لدى نَزَق الشبابِ نعيمَهم ... فسَعَوْا له ومضَوْا بغير حساب !
بذرَ « الفرِنجةُ » كل مُهْلكةٍ لهم ... وأتَوْهُمُ بالبَهْرَج الخَلَّابِ
وَجَنَوْا لهم حُرِّيةً مزعومةً ... طاحَتْ بهم فى هُوَّةٍ وخرابِ !

***

يأيها « الرأسُ » الجميـــلُ : تحيةً
من صادق فى الوُدِّ ليس يحابى . . .
لا غَرْوَ أنْ صُغْتُ القَرِيضَ مُخَلِّداً
ذكراكَ أنتَ ، على مَدَى الأعقابِ :
وَهَبَتكَ دُنْيَاكَ العفيفـةُ بيننا
مَغْنًى سَمَوْتَ به على الأترَابِ

محمد يوسف المحجوب

القصص

أعصاب

للقصصي الروسى تشيكوف

بقلم محمود البدوى

عاد المهندس المعمارى ديمترى اسيبوفتش فاكسن من المدينة إلى كوخه الذى يقضى فيه عطلته وهو متأثر غاية التأثر مما سمعه فى جلسة استحضار الأرواح التى تشرف بحضورها !

وعند ما خلع ملابسه ، ومشى إلى فراشه المنعزل ، ولا أنيس معه فيه — فقد بارحت مدام فاكسن المنزل إلى عمل يستغرق طيلة الليل — لم يستطع أن يطرد عن ذهنه تصور كل ما سمعه ورآه فى هذه الليلة التى لم يكن الحديث فيها ممتعاً على الاطلاق ! فلقد مضوا الليل كله فى حديث مروع بدأته سيدة فى رونق صباها — على ذكر لا شىء — بالكلام عن التفكير عند القراءة ، ومن هنا تشقق بهم الحديث دون ادراك إلى الأرواح ، ومن الأرواح انتقلوا إلى الأشباح ، ومن الأشباح تشعبت بهم سبل الكلام إلى أناس يدفنون أحياء .... ! وقرأ سيد قصة مرعبة عن جثة تسير وهى مدرجة فى الكفن ... وطلب فاكسن نفسه فنجانة وأخذ يشرح للسيدات الصبايا الطريقة المثلى لمخاطبة الأرواح ! وأحضر من بين الموتى روح عمه كلافدى ميرونتش وسأله :

« ألم يحن الوقت بعد لنقل ملكية منزلنا إلى زوجى ؟ »

فأجابته روح عمه : « كل الأشياء حسنة فى حينها »

وفكر فاكسن وهو مضطجع على سريره وقال لنفسه :

« فى الطبيعة أشياء كثيرة ... سرية ... ومفزعة ... فالمجهولات لا الأموات هى المروعة حقا »

ولما دقت الساعة واحدة انقلب فاكسن على جنبه الآخر ، وأخذ يرمق من تحت غطائه نور المصباح الأزرق المحترق أمام الصورة المقدسة ، وقد ارتعش لهبه ، وألقى نوره الخابى على قاعدة الصورة ، وظهرت أمام سريره صورة عمه كلافدى الكبيرة المعلقة على الحائط

وومض هذا الخاطر فى ذهنه : « وماذا ... إذا ظهر فى هذه اللحظة شبح عمى كلافدى ... ولكن بطبيعة الحال ... هذا محال »

ومع أن الأشباح — كما نعرف جميعاً — خرافات من ذرية الذكاء المحدود ... فقد ضم فاكسن غطاءه عليه حتى غطى رأسه وأغمض عينيه تماماً ! على أن الجثة التى سارت وهى ملفوفة فى كفنها عادت إلى ذهنه بعد برهة قليلة ، ورفعت أمام مخيلته صور المرحومة حماته ، وزميل له شنق نفسه ، وفتاة أغرقت نفسها أيضاً ... وحاول فاكسن أن يطرد عن ذهنه هذه الصور السوداء ولكنه كان كلما أمعن فى الطرد أمعنت هذه الصور فى الثبات ، وأحاطت به خيالات مخوفة ، وأخذ يحس بالرعب المتمكن والجزع الشديد

وقال لنفسه :

« إلى المشنقة بهذه الخواطر جميعاً ... هأنذا خائفاً فى هذا الظلام كطفل ... معتوه . وسمع الساعة تدق فى الغرفة المجاورة : « تك .. تك .. تك »

ورن ناقوس الكنيسة فى فنائها القريب مبيناً الوقت .. دق الناقوس فى بطء وانقباض وحزن .. وسرت رعشة شديدة فى عنق فاكسن امتدت إلى عموده الفقرى ، وخيل إليه أنه يسمع إنساناً يتنفس فوق رأسه بثقل ! كأن العم كلافدى قد رأى أن يبرح إطار صورته وينحنى فوق ابن أخيه ... وشعر فاكسن بالرعب الذى لا يحتمل ، فصر بأسنانه ، وعلق أنفاسه فى هول

ولما قفزت حشرة من الحشرات الطائرة إلى النافذة المفتوحة وانقلبت تطن فوق فراشه لم يستطع الاحتمال أكثر مما احتمل فجذب زر الجرس بعنف

وسمع بعد هنيهة صوت الحاضنة الألمانية واقفة على بابه تقول بالألمانية :

« ما الذي تريده يا ديمتري اسيبفتش ؟ »

فصاح فاكسن فرحاً « آه .. أأنت يا ... روزاليا كارلوفنا لماذا تتعبين نفسك ؟ .. أين جافريلا ؟ لا بد أن ... »

« بعثت أنت بنفسك جافريلا إلى المدينة ... وجافريلا مضت تقضي الليل في بعض الجهات ... وليس في المنزل أحد سواى ... فما الذي تريده من فضلك ؟ »

« حسنا ... الذي أريده ... هو ... ولكن من فضلك ادخلى ... لا داعى للقلق .. انه .. ظلام ... »

ودخلت روزاليا كارلوفنا وهى امرأة بادنة حمراء الخدين !! ووقفت على الباب وقفة المنتظر

« اجلسى من فضلك ... أنت ترين ... أن الأمر هكذا ... »

وعجب وقال لنفسه : أى شيء أسألها فيه وعنه .. ؟ وسارق صورة عمه النظر وشعر بروحه تعود تدريجياً إلى الهدوء

« الذى أوده منك فى الحقيقة هو ... آه ... لما ينطلق الخادم إلى المدينــة لا تنسى أن تخبريه بأن أ ... أ ... يجيء ببعض أوراق السجاير ... ولـكن من فضلك اجلسى »

« ورق سجاير ... حسناً ... وما الذى تريده أيضاً ؟؟ »

« الذى أريده ... لا شيء أرغب فيه ولـكن .. اجلسى .. سأفـكر فى شيء آخر بعد دقيقة »

« العذراء ... تخاف البقاء وحيدة فى غرفة رجل يا سـيد فاكسن ... فهمت ! إن حاجتك الى ورق سجاير ... كانت فى الواقع لا تستدعى إيقاظ أحد ... فهمتك »

وانقلبت روزاليا كرلوفنا على عقبيها وغادرت الغرفة ، وسكن روع فاكسن لـما تحدث معها وخجل من جبنه للغاية ، وغطى رأسه ، وأغمض عينيه ، وشعر مدة عشر دقائق كاملة بالراحة التامة ، وبعد هــذا زحفت إلى ذهنه نفس الخزعبلات المـاضية . . . فتحسس الثقاب وأشعل شمعــة وهو مغمض العينين ! وأصبح النور بعد الهلع الذى هيمن على كيانه عديم الجدوى ، فقد صور له خياله المضطرب أشباحاً طلعت من الأركان وبدت عيون عمه تتحرك . . . ! !

فقرر قاطعاً :

« سأدق لها الجرس مرة أخرى ... لعنة الله على المرأة ... سأخبرها بأنى أشـعر بالتعب وفى حاجة إلى بعض أقراص من الحلوى »

وشد فاكسن الجرس فما جاوبه أحد . ودق ثانية فسمع جرس الـكنيسة يدق كأنما يجاوب على دقاته بمثلها . واستولى عليه الرعب وشاع فى جسمه البرد فقفز من فوق سريره وغادر مخدعه يعدو راسماً علامة الصليب ، وأخذ يلعن نفسه لجبنه وخوره , وجرى حافى القدمين فى قميصه الليلى حتى بلغ غرفة الحاضنة

وقال راجف الصوت وهو يطرق بابها :

« روزاليا كرلوفنا . . . أنمت ؟ أشعر . . . بأنى ر . . . ر . . . تعب . . . أود قليلاً من أقراص الحلوى »

فما جاوبه أحد وخيم الصمت

« أرجوك ! أفهمت ... أرجوك ... لماذا هذا القرف ؟ . . لا أستطيع أن أفهم ... خصوصاً إذا كان الرجل ... مريضاً ... أى عبث ... أنت فى الحى ... وفى مثل سنك » فقالت له :

« سأخبر زوجك ... أنك لا تدع عذراء شريفة فى أمان ... لـما كنت عند البارون انزيج ... جاء إلىَّ سعادته يطلب أعواداً من الثقاب ... ففهمت فى الحال معنى هذه الأعواد من الثقاب . !! وأخبرت البارونة ... فانا عذراء شريفة » فقال لها :

« إلى المشـنقة بشرفك هذا ... أنا مريض ... قلت لك هذا ... وأطلب منك بعض أقراص من الحلوى ... أتفهمين .. إنى مريض » فأجابته :

« زوجك امرأة شريفــة وطيبة ... ومن الواجب عليك حبها .. أجل ... أجل ... إنها نبيلة طيبة ... ولن أكون لها عدوة »

فقال لها : « إنك غبية ... غبية ... أتفهمين ... غبية »

* * *

اعتمد فاكسن على سارية الباب ، طاوياً ذراعيه ، ومنتظراً أن يذهب عنه هلعه الشديد ، فان رجوعه الى غرفته حيث يرتعش المصباح ويحملق فيه عمه . . . أمر لا يجرؤ على مواجهته ، وأن وقوفه على باب الحاضنة وليس عليه سوى قميص نومه أمر غير

لائق من جميع الوجوه ! ! فما الذى يعمله ؟ ؟

ودقت الساعة الثانية وما بارحه جزعه ؛ وكان الممر مظلماً فبدا له خيال أسود طلع من كل ركن واستدار ليواجه عقب الباب . على أنه تصور فى هذه اللحظة انساناً جذب قميص نومه من الخلف ولمس كتفه

فأعول ثم صاح :

« عذاب الجحيم ... روزاليا كارلوفنا »

ولما لم يسمع صوتاً فتح فاكسن الباب متردداً ودخل ؛ وكانت الألمانية الفاضلة غارقة فى سبات لذيذ ، وقد أظهر ضوء المصباح الخافت ما على وجهها من بشاشة ، ثم انساب الى داخل الغرفة ووقف بجانب حقيبة عند الباب ، وشعر بارتياح تام وهو فى حضرة مخلوق حى ، حتى ولو كان هذا المخلوق نائماً

ثم قال فى نفسه :

« خل الألمانية البلهاء غارقة فى نومها ... سأجلس هنا ... وحينما يبزغ النور أرجع الى مكانى . . فالصبح يبكر فى هذه الأيام . . . »

استلقى فاكسن على الحقيبة ووضع ذراعه تحت رأسه مترقباً طلوع الفجر

وتأمل ! !

« أى شىء ... لما يكون المرء عصبياً ... ورجل متعلم ذكى ... لنشنق جميعاً ... إنه عار شنيع »

وعند ما تسمع إلى تنفس روزاليا كرلوفنا الرقيق عادت اليه نفسه وثاب حسه وهدأ تماماً

وفى الساعة السادسة عادت زوجه فاكسن من عملها الذى استغرق طول الليل ولما لم تجد زوجها فى مخدعه دلفت الى الحاضنة تسألها عن «فكة» للحوذى

ولما دخلت الغرفة رأت منظراً غريباً ! ! ! بصرت على السرير روزاليا كارلوفنا غارقة فى النوم ... وعلى قيد ذراعين منها ينكمش زوجها على الحقيبة وينام نوم العادل !! ويغط غطيطاً عالياً

أما الذى قالته لزوجها وكيف كان حاله عند ما استيقظ فسأدع لغيرى تصوره فهو فوق طاقتى

محمود البدوى

هاجر العـــانس

للسيدة وداد السكاكينى

تسألينني يا صديقتى عن كآبة «هاجر» ووجومها ، وتتساءلين ملحة عن تجافيها وإيثارها العزلة والانفراد . إنك تريدينني على أن أفضى إليك بخبرها ، وأصرح عما أعلمه عنها ؛ ولا شك أن طلبك هذا يثير فى نفسى ذكريات الطفولة ويحملنى على أن أنحدر إلى أغوار الماضى ، حين كنت أعرف هاجر فى المدرسة تلميذة فى صف الشهادة ، وكم كان يشتد فرحى حين تدخل هذه الفتاة بيتنا فى البكور لتأخذنى معها ، فان عمتى أوصتها بمرافقتى إلى المدرسة ، وكانت رحمها الله صديقة حميمة لأسرة هاجر

كانت تدق باب بيتنا دقات مستعجلة ، فأبادر إلى صدارى الاسود ، وأعلق إلى جانبى محفظة كتبى بنجاد قصير ، فاذا أسرعت هاجر فى سيرها عدوت خلفها ، فأتعثر بمحفظة كتبى التى تتدلى على جنبى أو على ظهرى ، وكنت لا أقف لاصلاحها حتى لا تتأخر هاجر عن ميعاد المدرسة فتحرمنى مرافقتها فى الطريق

وكان يعظم سرورى حين تغيب معلمتنا العجوز الشمطاء ذات النظارة التى تربطها بالخيط إلى أذنيها وتحدرها إلى أرنبة أنفها فتطالعنا بنظرها المخيف من فوقها ، كنت أفرح وأمرح حين تغيب هذه المعلمة الغاشمة فترسل الينا المديرة « هاجر » كبرى تلميذات المدرسة لتحل محل المعلمة الغائبة ، وتعلمنا الدرس فأزهو يومئذ وألهو ، وألمس بأناملى رؤوس رفيقاتى اللاتى أمامى فيتلفتن وراءهن فاذا أنا صنم لا يتحرك

هذه صورة أولى لهاجر ما تزال فى ذاكرتى جلية بينة ؛ إنها كانت غضة الأهاب ، أنيقة الثياب ، ذات وجه أسمر مجدور ، وشعر جعد أسود ، قسمته ضفيرتين كثيفتين تنوسان على كتفها ؛ وكانت صناع اليد تغزل من الصوف أردية شتوية لأختيها سعاد ومليحة ، وقد كان أبوها قاسياً جامداً ندم على تعليمها بعد أن حازت الشهادة ، لكيلا يفتح العلم بزعمه قلبها وعينها ، فحلف ألا يعلم أختيها

ومرت الأيام فاذا مليحة وسعاد فتاتان ناهدان ، تلوح عليهما ملامح الجمال ، وتبسم لهما الحياة والشباب ، فراحتا تحلمان بالزواج ، وقد خطرت للوالدين هذه الفكرة فتمنيا تحقيقها قريباً ، وكانا يرتاحان لكل من يفاتحهما فى خطبة الفتاتين ؛ أما هاجر فكانت تضطرب أعصابها كلما رأت أبويها يسعيان لتوفير الزينة والدلال لأختيها ، ولا سيما بعد أن رأياها تستويان على عرش الأنوثة والجمال

ولا تسألى يا عزيزتى عن أحزان هاجر حين كانت تختصها أمها بتدبير المنزل والخياطة لأختيها ، واعداد ما تستطيع من الجهاز لهما ، خشية أن تخطبا معا ويضيق الوقت عن تهيئة المعدات اللازمة فى حياتهما المتيدة

وكانت هاجر تنمو آلامها وتشتد ، وتحس الغصة تقطع نياط قلبها ، وكثيرا ماخلت إلى نفسها ، وتحدثت عن جدها العاثر عند والديها ، فتلمن الجمال الذى بدا على أختيها ، فحرمها الدلال وجعلهما تستأثران بعناية الأم واهتمام الأب

وأخذ شعورها يطغى على نفسها فلا تستطيع إلى كبته سبيلا ، ولاح الوجوم فى وجهها ، وكان تفكيرها فى دمامتها يبث فى روحها القلق والعذاب

كانت تناجى ربها حين تلجأ الى فراشها وتحاول النوم فلا يرنق فى عينيها ، فتستعرض مظاهر الاهتمام بأختيها وإهمال أمها لها فتطفر الدموع من عينيها حزناً على حياتها الجافة البغيضة . وارحمتاه لهاجر ! كم كانت تتكلف الهناءة والهدوء أمام والديها وأختيها فتتظاهر بالانشراح لخطبتهما !

وكان لسوء مصيرها أن تلألأ حظهما وتكاثر الأخطاب ، ففى عصر يوم جاء بيتهن ثلاث نسوة فاستقبلتهما الأم وهاجر بملابس البيت وأوعزت الأولى الى سعاد ومليحة بأن تتزينا بأحسن ما عندهما من اللباس الجديد وتتضمخا بأزكى العطور ، وما استقر المقام بالسيدات حتى أقبلت مليحة وسعاد وكأنهما عروسان ليلة الزفاف ، فلما رأينهما بهرتاهن وعلقت بهن أنظارهن ، فتجاذبن أطراف الحديث بسهولة وسرعة كأنهن صديقات العمر ، وبعد قليل طلبت إحداهن من الفتاتين شربة ماء ، ولم يكن بها ظمأ ولا حاجة الى نقع غلة ، بل كان مرامهن جميعاً ، أن يرين انقلابهما بالمشى وانتقال أرجلهما على الأرض ، وأن يتمعن النظر فى طولهما وحركاتهما

كل هذا حدث وهاجر المسكينة جالسة الى جانب أمها تنظر الحظ يضحك لأختيها ويقهقه ، وتفكر فى نفسها فترى حظها عابساً مكفهراً ، ثم أخذت تطالع فى عيون الخاطبات ومضات الافتتان والاعجاب بأختيها ، فلم يسعها البقاء فى الغرفة فخرجت منها خشية أن تعى ارادتها وتستحيل كآبة نفسها دموعاً كاوية فتفضح وجومها وآلامها

وآن ذهاب السيدات فقمن يودعن الأم والفتاتين بالسلام والتقبيل ، فلثمن ثغرى سعاد ومليحة ليشممنهما فيعلمن إذا كانت فيهما رائحة تكره ، وعانقنهما لينشقن إبطيهما لعلهما تعرقان ، وهصرنهما الى أجسامهن ليحسسن هل هو عظم جاثم أم لحم رهو لطيف ، وكانت الأم والبنتان يشيعن الزائرات بمنتهى المجاملة والاغراء

كانت هذه الزورة المأنوسة يوم سعادتهن المشهود ، فما أغلق الباب خلف السيدات حتى انثنت الأم الى ابنتيها الجميلتين تدعو الله لهما بفتح البخت ومجىء النصيب السعيد ، وأن يقيض لهما زوجين من أحسن الرجال وأغناهم ، ثم سكتت إذ شعرت أنها استرسلت فى الدعاء لهما دون هاجر فقالت وهى تشير الى غرفتها وأنت يا «هاجر» الله لا ينساك يا حنونتى » !

بعد أسبوعين كنت ترين يا صديقتى فى إصبعى سعاد ومليحة خاتمى الخطبة ، وكنت أتردد على بيتهما لأساعد الأم وهاجر فى اعداد الجهاز ، أما هاجر الكئيبة فكانت ترنو بعينيها الى الخاتم الجاثم فى يد أختيها فيحز فى روحها الشعور المؤلم بالحقيقة الراهنة ، فتجاهد حسها وتكابد العذاب فى مغالبة ما تعانيه من قلق واضطراب لئلا يقال : إن غمامة من الغيرة والحسد تخيم على نفسها فتسىء الى سمعتها ، وبرغم ذلك كله كانت تنتابها من حين لآخر نزوات من السخط ، فتدعى بأنها تبرم بأعمال البيت المرهقة واستعجال الأهل فى تهيئة الجهاز بوقت حرج قريب

لقد تزوجت الأختان ويعلم الله كيف حضرت هاجر عرسيهما ، إنها لم تسمع الغناء بأذن واعية ، ولا أبهت للرقص ، ولا ذاقت من صفوف موائد الحلوى

لم تحقد هاجر على أختيها وإنما كان فى قلبها غضب على الأيام كالنار فى الحشا تتمنى لو أن الله خلقها جميلة فاتنة أو خلقها ذكراً

* * *

أصبحت هاجر وحدها فى البيت مع أمها وأبيها ، وقد جاوزت الثلاثين فكانت تعيش فى نضال دائم بين الأمل والقنوط ، وتتساءل بحرقة وحيرة عما تتوقع من الأيام وهى تمر وشيكة عجلى ، أيشفق الحظ عليها وإن تقدمت سنها ، أتهيء الأقدار لها حياة زوجية كأختيها ؟ ألا يوجد بين الرجال من يؤثر جمال الخلق والنفس على جمال الجسم والوجه ؟ فتزدحم فى مخيلتها صور من الأحلام والآمال تكبح جماح نقمتها وتبعث فى نفسها قليلاً من الاطمئنان ، ثم تقوم الى كتبها فتواسيها بحوثها وتسليها وتبحث فيها عن مآسى الحب والحياة ، ولبثت ردحاً من الزمن تساورها الأمانى برغم ما كان يبعدها من الواقع عن تحقيقها فتلمست فى هذه الظاهرة الجديدة لوناً من العزاء والجمام

لقد صبرت هاجر بضع سنين انقلب عزاؤها بمرور الأيام ثورة نفسية أليمة جعلتها غريبة الأطوار قليلة الكلام ، فأهملت العناية بألبستها وتسريح شعرها الذى عدا عليه الشيب كما أنها هجرت الاكتحال والصباغ وغارت عيناها وبرز جبينها المستدير وبدا فى وجهها الشاحب ما يبدو للمراهق الطارير

عاشت هاجر البائسة فى هذه الحقبة القصيرة يغمرها يأس عاصف وتصدمها الحقيقة الواقعة ، ثم عبثت يد السآمة برغبتها فى المطالعة فأعرضت عنها ونشدت السلوة فى المتنزهات القريبة

كانت أمها تشهد اضطرابها وتديم التأمل والتفكير فيها ، وتطالع فى عينيها أمارات القلق والنقمة فتحس فى نفسها عذاب الضمير لأنها كثيراً ما حالت دون خطبتها بشتى المعاذير ، فكانت ترد أخطابها دون علمها ؛ وكانت هاجر إبان ذلك فى ميعة العمر وريق الشباب ، فأدركت الأم أن أنانيتها الحمقاء هى التى كانت تسول لها الازدراء بفتاتها الكبرى كلما أسرعت بها الأعوام حتى آثرت أن تبقيها عزبة لخدمة شيخوختها ، ولولا أثرتها وإهمالها لكانت هاجر مثل أختيها زوجاً سعيدة وأما حنوناً

وطغى على روح الأم شعور الندم ، وران عليها الغم والاكتئاب ، فأحبت أن تكفر عن خطيئتها بتوفير الخدمة والمداراة لهاجر ، وترغيبها فى ممارسة التعليم الخاص فى بيتها وزيارة صديقاتها

واستمرت السنون فى سيرها فمات أبوها ولم يترك لها ما يؤمن معيشتها ، وبقيت أمها عندها ، أما أختاها فشغلهما عنهما الزوج والأولاد ، وكان لكل منهما حماة غاشمة لئيمة ، لا ترتاح لزيارة الأم والأخت لها ، فأهملت المتزوجتان أمهما لئلا تعصف فى بيتهما عواصف السوء والأحقاد

وفى جو هذا العيش القاتم الخانق كانت هاجر تناقش نفسها فى مصيرها فرأت من الحكمة وفصل الخطاب أن تحترف التعليم فعينت فى المدرسة التى نشأت فيها وثقفتها

كان بين هاجر العانس ومديرة المدرسة دالة ومودة ، فكانت تستشف فى أحاديث هاجر حسرة ومرارة وتبرما بتكاليف الحياة ، فتنفس عنها — بعطفها ولطفها — بعض ما يحتدم فى نفسها من ضيق وانقباض

وعهد فى المدرسة إلى هاجر بتعليم العربية لبعض الصفوف الابتدائية ، فكانت شديدة العناية بتعويد التلميذات حسن الالقاء وتجويده ، وكلما آنست منهن تقدما ونجاحا أوصتهن بالمثابرة على لهجتهن التى أخذنها عنها ، إذ كان أملها القديم الذى غدا أوهن من بيت العنكبوت يعاودها الفينة بعد الفينة ، ويوقظ فيها ما رقد من رجاء فى الزواج ، فتقول للتلميذات : حافظن على لهجة الالقاء فربما لا أعود اليكن فى العام القابل

جالت المديرة مساء يوم أرجاء المدرسة وراقبت صفوفها ، فوقفت بباب صف سمعت فيه لغطا ولغوا ، فاقتحمته وهى تظن أن ليس ثمة معلمة فيه ، وشد ما شدهت حين رأت هاجر تحدق بنظرها فى الأفق البعيد دون أن تنتبه لوجودها

تقدمت اليها المديرة بلطف وابتسام ، وسألتها : فيم تفكرين يا هاجر ؟ فأجابت : إننى أتأمل هذه الطفلة الجالسة ههنا ، وأشارت اليها ثم أردفت قائلة :

انظرى ياسيدتى مآسى الدهر ومهازله ؛ إننى أفكر فى أم هذه الطفلة ، فلقد كانت تلميذتى !؟

(دمشق) وداد سكاكيني

مأساة من سوفوكليس

٤ ـ أنتيــــجونى

للأستاذ دريني خشبة

تتمـــة

— ١١ —

الجورس : « مولاى ! إن تيرزياس لم ينطق عن هوى قط ! لقد أشعلت السنون رأسه بشيب التجارب ، وإن هذه لنبوءة ... إنها لنبوءة ! ! »

الملك وقد بدا عليه الفزع : « أنا أعرف ذلك ! وا أسفاه ! لشد ما أزعجتنى نبوءة تيرزياس ! ولكن ... ما ذا أصنع ! ان التقهقر يؤلمنى !

— « ما تزال فسحة من الزمن للتبصر يا مولاى ! »

— « ما ذا أصنع ؟ أنصحوا لى ! سأطيع ! سأخضع ! أنصحوا لى !

— « انطلق من فورك فاستنقذ الفتاة من قبرها ، وابن قبرا للقتيل ! »

— « أهــذه نصيحتكم ؟ ... ها ... ها ها ... لا ... لن أستسلم ! لن أستخزى !

— « البدار البدار ! أسرع ما استطعت ! إن السماء نفسها تتجهم ... إنها تنذرك بلسان الكاهن

— « أواه ! أنا مجبر ! أنا مغلوب على أمرى ! أنا ما أستطيع مغالبة القضاء !

— « هلم الساعة فاصنع كل شىء ! بيديك أنت ! لا تشرك يداً أخرى !

— « هلموا فى إثرى ياشيعى العزيز ! هاتوا عدتكم ! سأبنى القبر ، وسأحل العقدة التى أحكمت رباطها ! لشد ما يضطرب الجزع فى حنايا ضلوعى ! لماذا حدث عن طريق قومى ؟ ياللشجو ! !

« يخرج الملك عجلا »

— ١٢ —

ويردد الجورس عظة الموقف ، ثم يدخل رسول فيقول :

— « سلام على جيرة قدموس وأحباء أمفيون [1] ! قضى الأمر ، فلا سعادة تنفع ولا شقاء يبقى ! الجميع سواء ! الملك ! ما الملك ! ماهو إن كان موحشاً هكذا ! حلك شديد وظلمة تدجى !

— « ماوراءك يارسول ! أى ضِغْثٍ ناء من جديد بكلكله على هذا البيت ؟

— « ماتوا ! ! وقتلهم ما يزالون أحياء !

— « من القاتل ومن القتيل ، أفصح يارسول !

— « هايمون ! قتل هايمون ! انتحر المسكين ! ! قتله يأسه وأودى به قنوطه ، وحزنه على الفتاة التى قتلها أبوه !

— «ويحك ياكاهن طيبة ، ما قلت إلا حقا ! وى ! الملكة ! إنها قادمة ! مسكينة يا أم هايمون ! لشد ما تحزنين اليوم

— ١٣ —

« تدخل الملكة يوريدس »

— « فيم تناجيكم أيها الأعزاء ! أحقاً قتل هايمون نفسه ؟ لقد سمعتكم تقولون مثل هــذا ؟ ! نبئونى ! لا تنزعجوا ! ليست هذه أولى مصائبى ، أحقاً مات ولدى ! ؟ تكلموا ! !

— الرسول : « أيتها الملكة ! سأقص عليك كل شىء ، لقد شهدت المأساة بنفسى ! كلنا سواء فى الحزن وشركاء فى الأسى ! لقد ذهبت فى إثر الملك الى بطحاء طيبة حيث جثمان بولينيسز ، وحيث عمل الملك بيديه فى حفر مقبرة لبقايا القتيل التى أبقت عليهــا عقبان الجو وذؤبان الفلاة ... ثم انثنينا الى القبو المظلم الفظيع الذى أمر بأنتيجونى أن تموت فيه ... وما كدنا نقترب حتى سمعنا نشيجاً مؤلماً وأنيناً مفزعاً ... ثم اذا صرخة داوية تتردد فى حنايا القبو ... وأمرنا الملك أن نتقدم حين أدرك أن الصوت صوت هايمون ... تقدمنا أيتها الملكة ! واحزناه ! لقد بلغنا أقصى زاوية فى القبو ! ياللهول ؟ أنتيجونى ؟ ! مسكينة ! لقــد شنقت الفتاة نفسها بغلالة حريرية فى سقف القبو ! ! وركع هايمون على ركبتيه ... بجانبها ... وأخذ يعانقها ... ويبكى ... ويبنى حظه ... ويبث شكواه ! وكان يندب حبه بكلمات مُثَنَّة تقطع نياط القلوب ! ... وكلمأبوه ... ولكن حدجه بنظرات غائرة ، ثم انتزع سيفه وجمل زُجه الى أرض القبو ، وسِنَّه فى صدره ، واتكأ المسكين بكلكله عليــه ، فبرز الجراز يلمع من ظهره ... وسقط قليلاً على الثرى ، وظل ذراعه الضعيف الوانى ملتفاً حول خصر أنتيجونى ! ! وتدفق الدم مختلطاً بتراب القبو ... وذهبت روحه البريئة محوطة بأرواح الآلهة الى هيدز ! ! »

« تخرج الملكة كالمجنونة لا تلوى على شىء »

— ١٤ —

— « ما ذا تستنتج من هذا ؟ لقد انطلقت الملكة دون أن

(١) هو ابن زيوس وملك طيبة ومن كبار الموسيقيين

تنبس ببنت شفة ؟ !

— عجيب حقاً !! ربما كربها الخطب ، فهى ذاهبة تجمع له وصيفاتها ثم يبكى الجميع شباب هايمون !

— « ... أ ... الملك ! ... الملك قادم ... ماذا يحمل ؟ ... وى ؟ إن الحزن كاد يصعقه ! !

« يدخل كريون حاملا جثمان هايمون »

— « ويل لى من قتيل قاتل ! ويل لى مما جنيت على نفسى ! يا رحمتا لك يا ولدى ! ويح لك يا هايمون ! أنا قاتلك فاعف عنى ! اصفح عن والدك يا هايمون ! آه ! ... آه ... !

الخورس : « مسكين ! يندم الآن ولات حين مندم ! انبلج الحق لعينيه ... ولكن ... بعد أن لم يكن شىء !

الملك : « وا أسفاه عليك يا ولدى ! الساعة فقط ألمس أخطائى ! لكأنما كان القدر يعصب عينى ! ! »

« يدخل رسول ثان »

— « مولاى ! أنت هنا تبكى ولدك ... وفى القصر ... بكاء جديد يا مولاى ؟ !

— « بكاء جديد ماذا ؟ ماذا تخبأ لى الأقدار بعد هذا ؟

— « الملكة يا مولاى ... الملكة ...

— « الملكة ؟ ...

— « إى ... ماتت !

— « ماتت ! وا حربا لى آه يا برزخ الموت لم يجرف تيارك قطع نفسى ؟ وأنت يا رسول الشؤم ! لقد قتلتنى مرة أخرى ! ألا حدث أيها الرسول ! أهى مضرجة بدمائها مثل هذا ...

« ترفع ستار عن جثة الملكة فتبدو للعيان »

— « وا حسرتاه على ما قدمت ! بكاء جديد وشجو آخر ، أى خطوب أنكى تتربص بى أيضاً ؟ آه يا ولدى الحبيب ... ويح لك ... ولأمك ... أمك التاعسة ... ! »

الرسول : « لقد كانت تصلى للآلهة أمام المذبح ، وكانت أيضاً تبكى ولديها ميجاريوس وهايمون قبل أن تطعن نفسها بخنجرها »

الملك : « ألا من يطعننى أنا الآخر بخنجر ذى شعبتين ، فلا يبقى ولا يذر ! ... واحزناه ! ...

الرسول : « لقد طعنت نفسها بعد أن انطلقت من هنا وبعد أن سمعت بانتحار هايمون !

الملك : « أنا القاتل يارفاق ! أعترف ! أنا القاتل ! لقد قتلتهم جميعاً ... اقبضوا على !

مرحبا بالموت ! مرحبا به من منقذ ! لن أعيش ليوم آخر ، لن تشرق على ياذكاء مرة أخرى

الخورس : « الزمن كفيل بكل شىء ! والقدر يبرم نهايته ! »

الملك : « لقد صليت صلاتى وأودعتها كل أمانى ! »

الخورس : « وماذا تجدى الصلاة ؟ إنها لا تدفع حشرجة المحتضر ! »

الملك : « هلموا بى ! هلموا بالرجل المتجبر الذى قتل ولده . وقضى على ... زوجه ! ... إن الدنيا بأجمعها تهاوى فوق رأسى حجراً حجراً ! يا للمقادير ! يا لشجوى ! ... »

الخورس : « العمل الصالح طريق السعادة الممهد ! وطاعة السماء فرض قدسى ! الكبرياء تحطم الكبرياء ! والخيلاء تورث الشقاء ... والسعيد من اتعظ »

دريني خشبة

البريد الأدبي

عطف المسلمين على منكوبي فلسطين

كان من أثر ما نشرته (الرسالة) من الوصف الناطق لمآسي فلسطين الدامية أن دفعت الأريحية العربية إخواننا فى (تلمسان) إلى أن يؤلفوا جمعية لاعانة منكوبى فلسطين ، فجمعت فى أول اجتماع ألفا وخمسين فرنكا فرنسيا ؛ أرسلت بها تحويلا إلى إدارة الرسالة على بنك الكريدى ليونيه فى باريس . وقال الفاضل السيد المختار الصبان أحد أعضاء هذه الجمعية فى كتابه الينا : « وقد اقتضى نظر اللجنة المكلفة بجمع الاعانات فى (تلمسان) أن يُبعث هذا المبلغ باسمكم ، راجين من فضلكم أن تبلغوه أنتم من هناك إلى من هو قائم بقبض الاعانات وتلقيها بفلسطين . وهذا مبلغ أول اجتمع بيننا ، وسنوافيكم بعده إن شاء الله بكل ما يجتمع لدينا ، لأننا ما زلنا فاتحين باب الاعانة ودائبين فى العمل ... »

و (الرسالة) باسم فلسطين تشكر لأهل تلمسان أريحيتهم ، ويسرها أن تكون واسطة خير بين احسانهم وبين لجنة الاعانة

مسألة الأجناس

وجهت مجلة « النوفيل لترير » البارزية إلى طائفة من أكابر الاخصائيين الفرنسيين فى علوم الأجناس البشرية (البيولوجيا والانتروبولوجيا) عدة أسئلة تثيرها اليوم مسألة الأجناس فى أوربا ؛ وأخصها ما يأتى : (١) ماهو مبلغ نظرية جوبينو عن مزايا نقاء الأجناس أو تمازجها من الصحة ؟ وهل يمكن أن تعتبر من الوجهة العلمية من عوامل التأثير فى الحياة العقلية والمادية للأمم ؟ (٢) هل يمكن أن يعتبر وجود الأجناس النقية المنعزلة فى عصرنا حقيقة بيولوجية ؟ أم هل تقتصر هذه الحقيقة على بعض الميول العقلية والمصطنعة التى تتأثر بها اليوم بعض الأمم ؟

وقد أجاب على أسئلة المجلة البارزية عدة من أكابر العلماء منهم الأستاذ ريبو أستاذ البيولوجيا فى كلية العلوم البارزية ، والمسيو رفييرمد بمتحف الأنتروبولوجيا ، والدكتور فرنو أستاذ الأنتروبولوجيا فى معهد باريس . وتتلخص أجوبة هؤلاء العلماء فيما يأتى :

(١) إن الأجناس أو السلالات النقية نادرة الوجود فى عصرنا حتى فى أعرق الأمم حضارة ، ولا يوجد أى نموذج منها فى أوربا . وهى من الوجهة النظرية يجب أن تكون وحدات بيولوجية . ولكن الواقع أن الجماعات التى تزعم أنها قد احتفظت بنقاء الجنس لا تقوم إلا على المصلحة المشتركة ، ولا تجمعها سوى ميول عقلية أو مصطنعة ، وهذه ليست سوى عواطف يستغلها القادة فى الجمهور الساذج

(٢) إن امتزاج الأجناس الرفيعة بالأجناس المنحطة لا ينتج دائماً من الآثار السيئة ما يقول بعض العلماء ؛ فقد ثبت من المشاهدات البيولوجية الحديثة أن هذا الامتزاج ينتج أحياناً نماذج جنسية بديعة . مثال ذلك امتزاج الأسبان والبرتغاليين بالهنود فى البرازيل ، فقد أنتج فى بعض الأقاليم جنساً خلاسياً هو أذكى وأنشط وحدات الشعب البرازيلى

وقد أنتج امتزاج المستعمرين الهولنديين فى جنوب افريقية بالهوتنتوت شعباً ذكياً قوياً من الوجهة الحيوية

ويلاحظ الأطباء الفرنسيون أن امتزاج الفرنسيين بالهند الصينيين ينتج نسلاً بديعاً خصباً

وقد لاحظ رحالة انكليزى كبير أن امتزاج السود بالبيض فى الجزر الجنوبية فى المحيط الهندى ينتج نسلاً جميل التكوين وافر الذكاء ؛ وقد لاحظ بنوع خاص أن النساء الخلاسيات فى هذه الجزر يتمتعن بجمال فى الوجه والجسم يندر أن يوجد فى كثير من الأجناس الأوربية

والخلاصة أن آراء أولئك العلماء تكاد تتفق على نقطة جوهرية هى أن نظرية نقاء الأجناس لا تقوم من الوجهة العلمية على أسس صحيحة

رواية عن مصر الفرعونية

كان أول من اتخذ أساطير مصر الفرعونية وتاريخها موضوعا للقصة العصرية الكاتب والرحالة الألماني الشهير جورج إيبرس، فقد أخرج لنا عن مصر الفرعونية عدة قصص امتازت بحسن السبك والخيال؛ ولم تكن المباحث الأثرية الفرعونية قد تقدمت في عصر إيبرس، أعني منذ نحو قرن تقدماً يذكر، وقد أثارت الاكتشافات الأثرية الأخيرة في تراث مصر القديمة اهتماماً كبيراً، وألفى فيها جماعة من الكتاب من مختلف الأمم مادة حسنة للقصة الممتعة. ومن هذه القصص التي ترجع بنا إلى الماضي الغابر، قصة صدرت أخيراً بقلم الكاتب الانكليزي چاك لندسي عنوانها «جولات وينامين» The Wanderings of Wenamen، وهي قصة تدور حوادثها على أواخر عصر طيبة حينما أشرفت مصر على هاوية الفوضى والحرب الأهلية، وبطلها موظف حكومي يدعى وينامين أوفده الكاهن الأكبر «آمين» إلى لبنان ليشتري خشباً من الصندل ليصنع منه قارب مقدس، ويصف المؤلف أحوال مصر المضطربة خلال الرحلة وما يلاقيه وينامين من الاحداث والمفاجآت الخطرة، ويصف بالأخص ظروف الحياة في طيبة القديمة، ويقارنها بالحياة في مصر الشمالية (الدلتا)، ويبدي مستر لندسي براعة خاصة في تنسيق الحوادث التاريخية وسبكها في قالب القصة المبتكرة دون أن يجني على روحها أو صبغتها التاريخية، وهذه مقدرة تشهد له بالتوفيق في فهم روح مصر الفرعونية كما يجب أن يفهمها قصصي يحاول أن يعرض الحقيقة في ثوب الخيال. ويرى بعض النقدة أن مستر لندسي هو أول قصصي انكليزي استطاع منذ تشارلس كنجسلي مؤلف «هيباسيا» التي تدور حوادثها على العصر اليوناني في مصر أن يقدم عن مصر القديمة رواية جديرة بالتقدير الأدبي

رحلة في بلاد العرب

الآنسة فريا ستارك رحالة انكليزية تجولت كثيراً في الجزء الجنوبي من بلاد العرب. وقد أصدرت أخيراً كتاباً عن بعض رحلاتها عنوانه «أبواب جزيرة العرب الجنوبية The Southern gatesa of Arabi»، وفيه تصف رحلتها في حضرموت، التي اخترقتها وحيدة في غمر من الصعاب والمشاق الهائلة. وقد كانت حضرموت منذ الأزمان الغابرة أعظم مركز لتجارة «البخور» والعطور الدينية التي لبثت مراكز انتاجها قروناً في معزل عن العالم ولا سيما أوربا؛ وقد استطاعت الآنسة ستارك أن تنفذ الى هذه المراكز وأن تتجول فيها؛ وفي كتابها نحو مائة صورة التقطتها بنفسها تمثل كثيراً من المناظر المدهشة عن طبيعة هذه البلاد وسكانها

ذكرى مؤلف المارسييز

احتفل أخيراً في أنحاء فرنسا بذكرى مؤلف النشيد القومي (المارسييز)، روچيه دي ليل لمناسبة مرور مائة عام على وفاته ونظم الاحتفال الرئيسي في مدينة ستراسبورج مسقط رأس المحتفل بذكراه، وألقيت الخطب الرسمية تنويهاً بروعة النشيد القومي وعظمة واضعه. وكان روچيه دي ليل ضابطاً في جيش الثورة، وكان شاعراً بفطرته، فوفق إلى وضع هذا النشيد الذي ما زال منذ نحو قرن ونصف قرن يثير ضرام الحماسة القومية في فرنسا كلما هبت عليها الأزمات أو قرع نذير الحرب؛ وقد وضع روچيه دي ليل نشيده لجيش الرين الذي كان ينتمي إليه، ولكن جماعة من المتطوعة المرسيليين (أهل مرسيليا) تقلوا هذا النشيد وأذاعوه في أنحاء فرنسا، فسمى نشيد المارسييز منذ أيام الثورة إلى يومنا، وما زال هذا النشيد القومي الفرنسي يعتبر من أروع الأناشيد القومية؛ وقد وصفه الكاتب الانكليزي الكبير توماس كارليل بأنه أسعد تركيب موسيقي، وأعظم غذاء للعزة والحماسة

وفاة كاتب ألماني كبير

توفي في باريس أخيراً كاتب سياسي ألماني كبير هو جورج برنهارت محرر جريدة «باريز — تسيتونج» التي تصدر بالألمانية في باريس. وكان برنهارت قبل قيام الحكومة الهتلرية عضواً في مجلس الريخستاج (البرلمان)، وكان ديمقراطياً متطرفاً، فلما قامت حكومة النازي هرع إلى المنفى فيمن هرع من أكابر الكتاب والساسة اتقاء لبطش طغاة ألمانيا الجدد؛ ووقف قلمه على محاربة الدعوة النازية في الخارج؛ وكان يكتب بالفرنسية في بعض المجلات والصحف البارزية بمثل براعته في اللغة الألمانية

ومعظم أقطاب الكتاب الألمان يعيشون اليوم في المنفى وعلى رأسهم توماس مان، وأخوه هنريش مان، وأميل لودفيج، وليونارد فرنك، وغيرهم. ومنهم من غادر ألمانيا بسبب يهوديته مثل لودفيج؛ بيد أن معظمهم غادرها لأسباب سياسية، ولأن الحكومة الجديدة لاتسمح بذرة من الحرية للكتاب أو المفكرين

وهكذا يموت أكابر الكتاب الألماني في المنفى تباعاً لأنهم لا يستطيعون أن يتنفسوا في وطنهم

الكتب

سعد زغلول
سيرة وتحية
تأليف الأستاذ عباس محمود العقاد

بقلم الأديب عبد الرحمن صدقي

آية هذا الكتاب أن اجتمعت له خصال ثلاث تجعله فى عداد كتب السير المشهود لها لأعلام المترجين، وتلك الخصال هى: التحقيق التاريخى، والتحليل النفسانى، والتأثير العاطفى

يقول العقاد فى كلمة التمهيد لترجمته: «إن الصديق والمؤرخ فى الكتابة عن رجل كسعد زغلول يستويان أو يتقاربان، لأن الصديق لن يقول فيه ما ينكره المؤرخ، والمؤرخ لن يقول فيه ما ينكره الصديق. ومن النقص فى جلاء الحقيقة أن يكتب المؤرخ ترجمة لعظيم ثم لا يكون على مودة لذلك العظيم. ولأن يكون الكاتب مؤرخا وصديقاً خير للتاريخ نفسه من أن يكون مؤرخا وكفى، لأن الترجمة فهم حياة، وفهم الحياة لا يتسق لك بغير عطف ومساجلة شعور»

ولما كان الاستقصاء فى طبيعة مؤلفنا الكبير، فقد ابتدأ موضوعه من البداية، فتناول «الطبيعة المصرية» بالبحث الضافى، وعرض لمحك النقد أقوال المؤرخين فيها من أقدم عصور التاريخ، وأخذ باطل المبطلين منهم بالتفنيد المدعم بالأسباب والأسانيد. ثم أبان فى فصل آخر عن وجه الحقيقة فيها بما لا يدع بعده زيادة لمستزيد

وانتقل إلى أصل المترجم له، فلم يسكت عن تلميح البعض إلى نسبته إلى غير الأرومة المصرية، ومن هؤلاء من يرد أعراقه إلى المغول والترك، وآخرون إلى البدو أو عرب المغرب، ولقد سرد المؤلف مثار الشبهات عند أولئك المتقولين ليعيد فيها النظر على ضوء علم الأجناس، ثم باستقراء ما هو معروف من طريق القبائل العربية النازحة، فانكشف لمرأى العين ضعفها وصرف عنها الأذهان مقررا أن عراقة سعد فى بيئة الفلاح المصرى لا تفوقها عراقة زعيم من أبناء الأمم الأخرى

ثم يجيء الكلام عن جيل سعد وطابعه المميز من طلب الاصلاح والدعوة له والغيرة عليه، وبيان الدوافع لهذه الحركة الاصلاحية من الداخل والخارج، وما كان لهذا الجيل من شأن فى نشأة سعد واتجاه همته، وصفة أعماله فى مستقبل أيامه، ومن هذا الوصيد الكريم، يتطرق القارئ إلى حمى البيت القديم، ويتعرف إلى جد زغلول وأبويه وقرابته وطبائع قومه وأسرته، ومظاهر الحياة فى بلدته، وإذا بك بعدها ترى سعدا فى مدارج طفولته، وتتوسم مخايل نجابته، وتتتبع خطواته من مكتب القرية، إلى الجامع الدسوقى، إلى حلقات معهد الأزهر الكبير

وفى هذه القاهرة المعزية، اندمج الفتى سعد فى حركة دعاة الاصلاح وألقى بسهمه مع سهامهم، وكان يحضر الدرس على الشيخ محمد عبده، ويختلف الى مجلس السيد جمال الدين الأفغانى؛ وكان الأول أستاذاً له فى الدرس وقدوة فى الخلق، وأما لقاؤه للثانى بطبيعته الثورية فكان مرآة مجلوة لنفسه الجائشة وحافزاً لملكاته البيانية والخطابية

ومن ذلك الحين يصح الجزم بأن سعداً قد اتجه فعلاً الى وجهته، واستقام على متن طريقه المقدورة له

ويتسع الأفق فاذا الثورة العرابية ومقاديرها ومعقباتها من نفى وتشريد وحبس. وتشاء العناية لسعد أن تقوم على خدمته ظروف وملابسات، فيفرج عنه على كره من أولياء الأمر. ولا يلبث طويلاً حتى يشق طريقه من المحاماة الى منصة القضاء، ثم

تحمله رغبة الحاكمين فى ارضاء القومية المصرية وتنتذ الى دست الوزارة

هنا تزخر حياة هذا الرجل بالأحداث ، ويظهر أنه المدخور لنهضة وطنية عارمة تعم البلاد من أقصاها الى أقصاها، وتؤلبها فى قوة وإيمان على الغاصبين . ويمضى المؤلف فى تاريخه الضخم يصورها أروع تصوير ، ويدفع عنها المغالطة والنكير ، فى فصول حافلة طوال : فى طريق الوزارة ، سنة ١٩٠٦ ، وزارة المعارف ووزارة الحقانية ، سعد الوزير ، الحركة الدستورية ، الوزير المصرى فى المعاش ، فى ميدان الانتخاب ، الجمعية التشريعية فى خمسة أشهر ، قبيل الحرب ، الحرب العظمى ، تأليف الوفد المصرى ، بدء العمل ، القارعة ، الثورة ، من القاهرة الى مالطة الى باريس ، تأليف الوفد الأول ، موقف الوزارة الرشدية ، برنامج الوفد والامتيازات ، الوفد فى أوربا ، من سفر الوفد الى لجنة ملنر ، المفاوضة فى لندن ، فى مصر أثناء المفاوضة ، بعد عودة الأعضاء ، الوزارة العدلية ، العودة ، الخلاف على المفاوضة ، القطيعة بين سعد والوزارة ، فصل المفاوضات الرسمية ، النفى ، تصريح ٢٨ فبراير ، من المنفى الى الوزارة ، فى رآسة الوزارة ، الملك فؤاد وسعد ، من رآسة الوزارة الى رآسة النواب ، فى رياسة مجلس النواب

وهذه الفصول الطوال تنتظم التاريخ المعاصر كله لمصر الحديثة فى صور حية رائعة تتعاقب على أنظارنا وكأنما كاتبها لا يخط أحرفاً وإنما يرسم تهاويل مجسمة كالتى اشتهر برسمها على جدران المعابد شيخ الرسامين ميشيل انجيلو . على أنه يتخللها هنا وهناك مواقف شتى يقف فيها الفنان موقف المحلل الشارح ، كما يلبس أحياناً رداء المدره المنافح

ويختتم المؤلف كتابه كما استهله بفصول دقيقة عميقة لا تتاح لغيره عن زعامة سعد وأثرها ، وعن سعد وخصومه ، وعن شخصيته وأخلاقه ، وعن ثقافته . ويبلغ العقاد منتهى حنو العاطفة فى كلامه عن سعد فى بيته ، ومبلغ حدبه على أهله ، وكيف كانت السيدة الجليلة أم المصريين بنفسها المحبة وفطنتها الألمعية وقلبها الكبير ، شريكته بحق فى حياته ومجده . وكذلك يعرض عليك المؤلف الناحية اللينة إلى جانب الناحية الصلبة فى وصفه للقاء الأول واللقاء الأخير . وأما كلمته عن فاجعة الوفاة فانها فى عبارتها الصادقة المؤثرة يطالعها القارئ فيغلبه التأثر مهما يكن جلده ، فاذا هو لا يملك وجده ، وإذا الدمع يخنقه والزفرة تكظ صدره ثم لا تبرح ذهنه هذه الصورة آخر العمر :

« ثم ضعف النبض دفعة واحدة ، بعد انتظامه فى جميع الأدوار الماضية ، فغلب اليأس على الرجاء . وعاده الأطباء للمرة الأخيرة فى التاسعة والدقيقة الخامسة والأربعين ، ونزلوا إلى المكتب لكتابة تقريرهم الأخير . وإنهم لكذلك ، إذ دعى فتح الله بركات باشا إلى غرفة خاله وهو يجود بنفسه فى غيبوبة لم تنقطع منذ الصباح . فاشرأبت الأعناق وأمسك الناس أنفاسهم يترقبون . وما هى إلا دقائق معدودات حتى عاد فتح الله باشا إلى المكتب يمشى كالشيخ الهائم شاحب الوجه مذهول العينين . ولم يجرؤ أحد على سؤاله مخافة أن يكون الجواب المحذور . ولكنهم علقوا أنظارهم جميعاً بعينيه ولبثوا شاخصين ينتظرون . دقيقة واحدة أو دقيقتين ، ولكنهما كانتا من أزمان الأبد فى روع الشاخصين المنتظرين . وفى تلك اللحظة ارتفع صوت ناحب عند الشرفة المطلة على المكتب ، فضرب فتح الله باشا يديه على ركبتيه ، وجلس وهو فى جمود الأموات ...... ومضت ثوان أخرى . مضت والناس فى سكون عميق مرهوب ، وكان كل ما فى بيت الأمة ، وكل ما حوله على أعمق ما يكون السكون ، لا صدى فى المنزل ولا فى الطريق طوال اليومين الماضيين ، حذراً من ازعاج المريض العظيم المأمول الشفاء . فلما ارتفع الصوت الناحب وجم الحاضرون ثوانى قلائل ، كأنما كانوا يستطيلون الأمل المدبر ، أو كأنما كانوا بين تصديق وتكذيب . ثم انفجروا صيحة واحدة بالنشيج والعجيج ، فلم يكن أرهب من ذلك السكون إلا هذا الضجيج الذى اتصل صداه فى لحظات معدودات بكل مكان فى القاهرة ، وكل مكان فى أرجاء البلاد .. »

ولو أرخينا العنان لأعجابنا لأوردنا الكتاب كله شاهداً على فضل كاتبه فى كل ما سطره فيه ، وتبريزه فى نواحيه المتعددة ، وبلوغه الغاية من الفن والوفاء والصدق

ولكننا نقتضب ، فنقول إن جملة القول فى كتاب سعد زغلول للعقاد إنه أعظم نصب أقيم للبطل العظيم الراحل

عبد الرحمن صدقى